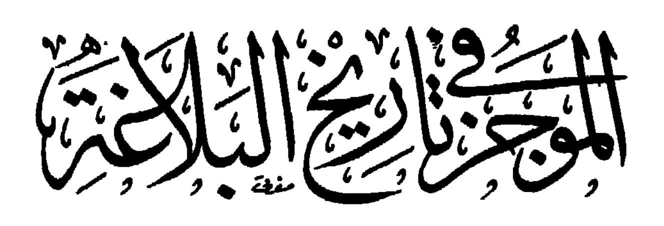


الدكتور مازن المبارك

أستاذ بجامعة قطر

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة على أبلغ من نطق بالضاد ، القائل إن من البيان لسحرا .

وبعد ، فهذه صفحات موجزة في تاريخ البلاغة العربية ، لم نعمد فيها إلى الشرح والتفصيل ، لأنا لم نبغ من ورائها أن نؤرخ لعلوم البلاغة تأريخاً دقيقاً ،وإنما كان غرضنا منها أن نضع بين أيدي الطلاب فكرة عامة عن المراحل الأساسية ، والخطوات البارزة ، التي خطتها البلاغة العربية ، منذ كانت كلمة رائعة على لسان ابن الصحراء ، أو حكماً على الكلمة البليغة أطلقه سامع متذوّق ، إلى أن صارت علماً حلّ بساحته الجفاف بعد الخصب ، وصوّحت خمائله بعد نضرة ، وأصبح ذا ثلاث شعب، لا تغني في إدراك الجمال ، ولا تشفع في معرفة الأدب .

وقد خلّلنا هذا العرض الموجز بعض آرائنا في أسباب تأخر البلاغة وترديها ، والانحراف الذي أصاب مفهومها ، وفيما ينبغي أن تكون عليه وتؤول إليه ، آملين أن يتسع العمر لكتاب آخر في البلاغة نطبق فيه هذه الآراء ، ونفيد فيه من تجارب الماضين ، لتظهر

البلاغة ـ كما نريد لها ـ حيّة من خلال النصوص، ولتدخل عنصراً من عناصر النقد وتقويم الأدب .

وقد جعلنا هذا الكتاب في تمهيد وستة فصول وخاتمة .

أما التمهيد فقد عرضنا فيه للبلاغة في العصر الحاضر ، وحلّلنا نظرة الجيل الجديد إلى هذا العلم ، وبيّنا سبب تلك النظرة .

وأما الفصول فقد أوزدناها على النحو الآتي :

الفصل الأول : البلاغة عند العرب .

الفصل الثاني : ظواهر بلاغية في العصر الجاهلي .

الفصل الثالث : البلاغة في ظلال القرآن .

الفصل الرابع : البلاغة في كتب الأدب .

الفصل الخامس : البلاغة في كتب النقد .

الفصل السادس : نحو الانحراف والجمود .

وأما الخاتمة فقد أوجزنا فيها ما ينبغي أن تكون عليه نظرتنا إلى البلاغة ، وما يجب أن تستعين به من علم وذوق ، وأن تتصف به من سعة وشمول ، وأن تفيد منه من أبحاث علم النفس وعلم الجمال ، وأن تتسع له من فنون أدبية حديثة .

تمهيد

لم يكن ضيقي حين كلفتني كلية الآداب تدريس مادة البلاغة بأقل من سروري بذلك التكليف ، فلقد سررت لأن هذا التكليف جاء منسجماً مع ما في نفسي من تقدير للبلاغة العربية ، وأما ضيقي فللفكرة التي رسبت في أذهان طلابنا وناشئتنا عن البلاغة العربية .

ولست أكتم أنني لاقيت الكثير من العنت حتى استطعت ـ إلى حد ما ـ أن أقتلع من أذهان الطلاب ما استقرّ فيها من أن البلاغة مادة « متحفيّة » وأن دراستها اليوم والرجوع إليها، لا يعني أكثر من جولة بين الآثار القديمة ، أو وقفة بين الأطلال .

ونحن نعتقد أن إغماض العين دون هذه الحقيقة لا يخدم البلاغة ، ولا يحلّ المشكلة ، إنها الفكرة التي استقرّت في أذهان الكثيرين، إن لم نقل إنها تكاد تمثل رأي جيل جديد في هذه المادة من علوم العربية .

ونحن لا نلوم طلابنا، ولا الناشئة من المتأدبين عندنا، على نظرتهم

إلى البلاغة ، تلك النظرة الصفراء المشمئزة... إذ ألم نلقّنهم - في آخر سنة من سنوات دراستهم الثانوية - عيوبَ الأدب في عصور الدول المتتابعة وسمّينا لهم ذلك الأدب « أدب الانحطاط » وجعلنا أكبر عيوبه تعلّقَ أدبائه بالصنعة البديعية والبيانية ؟!؟ وهل فهم الطلاب - حتى تلك السنة، إذا كانوا قد فهموا شيئاً من البلاغة - سوى أن البلاغة تشبيه أو استعارة وسجع وجناس وتورية وطباق ومقابلة ...

لقد فتحنا أنظار طلابنا على البلاغة يوم تحجّرت، ولم ندلّهم عليها يوم كانت ذَوْبَ الذوق العربي الأصيل ، وثوب الجمال الفني الرائع البديع ... ثم جئنا اليوم - في كلية الآداب - نطلب إليهم دراستها والعناية بها، وما هي في نظرهم إلا جثة محنطة ..

لقد عرفوا البلاغة في جزئيات تافهة منها ، وحتى هذا القليل التافه لم يعرفوه إلا من خلال حدود أو تعريفات مدرسية، وقوالب جامدة، وصنعة متكلفة متصيَّدة . فأين منها العلم ؟ وأين منها الذوق ؟ وأين منها الجمال ؟ بل أين منها حقيقة البلاغة ؟!؟ .

وهل عرف العربي البلاغة - يوم عرفها - حدوداً وتعريفات ؟ إنه عرفها يوم بدت جلية لناظريه، فجذبت سمعه، وخلبت لبه، وتمثلت

أمامه حيّـة على لسان البلغاء ن العرب قبل الاسلام . ثم عرفها ندية معجزَة في الكتاب اله بي المبين ، كما عرفها . د ذلك رائعة في تراث الأعلام من خطبائه كتّابه وشعرائه حتى أو خر القرن الرابـــع ...

على أن تلك البلاغة التي عرفها العربي بطبعه كما عرفها بعقله لم تصل إلينا على ما عرفهـــا عليه ... إنها وصلت إلينا بعد أن مرّت ـ عبر تاريخ طويل ـ بعصور طبعتها بالكثير من سماتها، وشابتها بالكثير من آثارها وخصائصها ، فإذا هي على ما نراها عليه اليوم من تأثر بالمنطق ، وإيغال في الفلسفة ، وبعد عن الطبـع ، واتسام بذوق عصور الدول المتتابعة ... ونحن أنفسنا لم نصل إليها إلا بعد أن تأثرنا إلى حدّ بعيد بالأدب الغربي وفنون القول فيه .. وتأثرنا بمذاهبـــه النقدية ، ونظرتها إلى الأمور البلاغية .

لقد عرفنا البلاغة بعد أن أصبحت حدوداً منطقية ، وشروحاً فلسفية، وصنعةمتكلّفة، فرأيناها تعابير جامدة، وتعريفات أقرب إلى حدود النحو أو المنطق منها إلى ذوق الفطرة وطبع النفس .

ومضت بعد ذلك عصور الركود، وفتحنا أعيننا على الغروب ، فإذا هو منّا على بُعدٍ بعيد... ولم يكن لنا بدّ من أن نحثّ الخطا مهتدين

بهديه ، متأثرين بكثير من جوانب الحياة الغربية .. وكانت لغتنا يوم اتصل الشرق العربي بالغرب ، عاجزةً عن القيام بنفسها ، بله استيعاب ما جاءنا عنه ، ولم يكن بدّ من تطوير اللغة، وبدأ هذا التطوير فعلاً، ولكن من ينتظر؟ لقد عدا الشرق لاهثاً وراء حضارة الغرب ووراء أدب الغرب ونقد الغرب، فأخذنا من فنونه الأدبية الشيء الكثير ؛ إننا حاولنا أن نطوّر ماورثناه من قديمنا في ضوء ما رأيناه حديثاً عنده، وقلّدناه فيما لم نجد عندنا نظيراً له .

وكانت للغربيين نظرات في الأدب وفنونه، وفي النقد ومذاهبه، وفي البلاغة وحقيقتها، وكان لا بدّ أن يتسرّب شيء من كل ذلك إلينا .

ولعلّنا لا نجانب الصواب إذا بادرنا منذ الآن إلى القول إن البلاغة إذا كانت منبعثة عن الذوق أو متأثرة به ، فإن لكل أمة ذوقها المتصل بطبيعتها. وإذا كانت البلاغة من المقاييس النقدية، فإن لكل فن مقياساً من طبيعته، وليس صحيحاً في نظرنا، ولا معقولاً، أن ننقد شعر زهير أو شعر المتنبي بمقاييس وضعت لنقد أدبٍ غير الأدب العربي ، بل هو أدب مباين له طبيعة وزماناً وبيئة ومكاناً .

إن الذين عقدوا الموازنات بين بعض الشعراء العرب ، كعمر بن

أبي ربيعة وأبي الطيب المتنبي من جهة ، وبعض الشعراء الغربيين من افرنسيين وانكليز من جهة ثانية، لم يكونوا على صواب حين نظروا في موازنتهم من زاوية بلاغية أو ذوقية . إن مثل هــذه الموازنات لا تكاد تقوم في غير مجال المفاهيم الانسانية العامة والمُثُل المشتركة . وأما الصور وما تقوم عليه من تشبيهات واستعارات، وأما التعبيرات، فإن لكل شعب فيها ذوقه ، ولكل أمة فيها طبيعة .

إن تشبيه وجه الحبيب بالقمر مثلاً ، أمر إذا ألفه العربي فقد يمجّه أو لا يستحسنه ذوق الغربي . ومن أين للغربي معاني « القمر » الــتي تعيش في ذهن العربي وخياله ؟؟

إن القمر إذا كان في ذهن الغربي قرصاً مدوّراً من النار ، فإنه عند العربي أنيس ليله في صحرائه ، ورفيق طريقه في مساربها ...

ثم إن طبيعة العقل العربي ذات خصائص مميزة ، ولعل من أهم تلك الخصائص عندنا، أن العقل العربي ذو طبيعة وثّابة، ونعني بذلك أن العربي حين ينطق بالكلمة فإن ذهنه يثب بين مفهومين لها بينهما بون بعيد .. إنه يبدأ بالكلمة الدالّة على الشيء المحسوس ثم لا يلبث حتى يقفز إلى مدلول معنوي آخر .. إنه سرعان ما يترك المرحلة البدائية

الأولى في التعبير ، لينتقل إلى مرحلة فكرية راقية ؛ فإذا قال كلمة كان لها يوم أوجدها مدلول حسّي، فإنه سرعان ما يغادر مدلولها ذلك الحسيّ ليشير بها إلى مدلول قفز إليه بذهنه، واستعملها للإشارة إليه .

إنه إذا قال « الحقد » لم يذكر معناه الحقيقي الذي هو انحباس المطر في السماء، ولكنه ذكر انحباس الغيظ في الصدر . وإذا قال «المجد » لم يذكر امتلاء بطن الدابة بالعلف، وهو معنى المجد أصلاً ، ولكنه ذكر امتلاء الانسان بالصفات الكريمة .

وكذلك هو إذا قال «القمر» أو شبّه به الحبيب، فإنه لا يريده بطبيعته النارية، ولا بشكله المدوّر، بل لم يخطر له شيء من ذلك على بال، ولكنه أراد ما يوحي به القمر من معاني النور والهداية والأنس، وما يحيط به من هالات السحر الغامض، والجمال الدفيء العجيب .

تلك هي عقلية العربي في إطلاق اللفظ ، وتلك هي وثبته الفكرية السريعة الرائعة بين كلمةٍ ينطق بلفظها ومدلولٍ يشير بها إليه .

ومن خلال هذه الطبيعة وحدها ينبغي أن ننظر إلى الألفاظ التي يستعملها الشاعر العربي، ومن خلالها أيضاً ينبغي أن نقدّر جمال صوره وما تقوم عليه من تشبيهات واستعارات ...

وأما ان ننظر إلى البلاغة على أنها هي الإرث الذي وصل إلينا من عصور الانحطاط ، ومن خلال قوالب وحدود منطقية، وشروح واستطرادات فلسفية، ثم نوازن كل ذلك بما عند الغربيين من مذاهب النقد وفنون القول ، فإن ذلك قتل لطبيعة البلاغة العربية ، وتزييف لحقيقتها ، ثم هو قبل ذلك جهل بوظيفة البلاغة ومهمتها وصلتها باللغة التي هي بلاغتها !

ولعل هذا الذي ذكرناه يستطيع أن يفسر لنا بعض ما نراه عندنا في الأدب الحديث والنقد الحديث من عزوف عن البلاغة وتنكر لها، وتنحية لها عن مجال الأدب والنقد .

لعله يفسر لنا بعض ما نراه من تناول الأدب العربي الحديث والنقد الحديث لكل شيء إلا بحوث البلاغة وما يتصل بها .

لعله يفسر لنا لماذا كانت المكتبات ودور النشر في العالم العربي تقذف كل يوم عشرات الكتب من كل نوع إلا ما كان متصلاً بالبلاغة؛ إنه ينقضي جيل أو أكثر دون أن يصدر كتاب واحد يتصل بالبلاغة، بل ما بالنا نذهب بعيداً ونحن نرى كلية الآداب في أكبر جامعة في العالم العربي لا تقيم وزناً للبلاغة، ولا تدرّسها حتى للمختصين من

طلابها .. وإذا سألت عنها في المنهاج قيـــل لك إنها مسماة بـ « النقد » ومنهاج مادة النقد هذه لا صلة له أبداً ببلاغة العرب التي نريد !!

نعم يجب ألاّ نكتم دهشتنا حين نعلم أن طالب قسم اللغة العربية في إحـــدى كليات الآداب في الوطن العربي يحمل إجازة الآداب (الليسانس) وهو لا يعرف مصدراً واحداً من مصادر البلاغة بله فنون البلاغة وأقسامها .

ونحن نعتقد أنه إذا أردنا للبلاغة ثوباً جديداً ، فلا بدّ لنا من فهم القديم، لا بد لنا من الكشف عن البلاغة في ثوبها القديم الذي لم يعد يعجبنا ولا يرضي أذواقنا .. إن التجديد نفسه ليدعو إلى معرفة القديم ليكون تجديداً صادقاً أصيلاً ، وإنه لشتان ما بين تجديد مخلص ، يعرف القديم ويعمل على تطويره، وتجديد يبدأ من جديد، قاطعاً كل صلة بالقديم وأصله .

لقد هُيّء للبلاغة العربية في كل عصر من عصورها من جـــدّد فيها ، فمنهم من جدّد فأحسن ، ومنهم من جدّد فأساء . أما نحن فما جـــدّدنا محسنين ولا مسيئين ، ولكن قطعنا صلتنا بماضي بلاغتنا وسمينا القطيعة تجديداً . ونحن اليوم أقـــدر على التجديد والتجويد

بفضل ما عرفنا من تقدم بعض العلوم العصرية التي نعتقد أن لها بالبلاغة صلة قوية .

ونحن نبادر منذ الآن إلى القول :

١ - إن البلاغة دراسة جمالية ذوقية، يجب أن تفيد اليوم من علم النفس وعلم الجمال .

٢ - إن البلاغة تذوّق جمالي ينبغي أن يدخل في جملة مقاييسنا التي نقوّم بها الانتاج الأدبي والفني . ونحن حين نعرّف الأسلوب الأدبي نميزه من غيره من الأساليب بما يبعثه في نفوسنا من استجابات انفعالية عاطفية أو فنية لا يبعثها فينا غيره ، أفليس من البداهة بعد ذلك أن نحسب لهذه الميزة حسابها في تقويم الأدب ودراسة الآثار الأدبية ؟

٣ - إن علم المعاني أساس البلاغة وأقوم علوم اللغة ، فينبغي أن نرعاه ونزيد العناية به ، ونوضح صلته بالنحو ، لأنهما علمان متكاملان، بل هما علم واحد يصون اللسان من اللحن والخطأ في التركيب ، ويرشد المتكلم والمنشىء إلى التأليف على سمت الكلام العربي .

٤ - إن الأدب العربي الحديث انفتح على الأدب الغربي ، وأفاد منه فنوناً أدبية حديثة ، لم يعرفها النقاد العرب وعلماء البلاغة ، ولن يجدينا أن نقيس هذه الفنون الأدبية الحديثة بمقاييس مجلوبة لا تلائم طبيعة اللغة التي تعبر بها ، بل لا بدّ من نظرة جديدة واسعة تجعل البلاغة صالحة لأداء وظيفتها في مجال الأدب الحديث .

الفصل الأول

البلاغة عند العرب

سئل العتّابي[1]: ما البلاغة ؟ فقال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ.... فقيل له: قد عرفنا الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال: أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه : يا هَناهْ ، ويا هيَه ، واسمع مني ، واستمع إليَّ ، وافهم عني ، أوَ لست تفهم ، أوَ لست تعقل . فهذا كله وما أشبهه عيٌّ وفساد .[2]

وتحدّث الجاحظ غير مرة عن البلاغة إلا أنه قال : قال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه ـ : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك[3] .

---

(١) هو كلثوم بن عمرو من شعراء العباسيين، وكانت له حظوة عند الرشيد والبرامكة.

(٢) البيان والتبيين ١ : ١١٣

(٣) البيان والتبيين ١ : ١١٥

وشرح كلمة العتابي فقال : والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولَّدين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان ، بعد أن نكون قد فهمنا عنه ، ونحن قد فهمنا عن النبطي الذي قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟ قال : أركبها وتلد لي[1] . وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً ..... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب، كله سواءً وكله بياناً، وكيف يكون ذلك كله بياناً ؟ ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلي ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم ، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بضغاء السنور كثيراً من إرادته ، وكذلك الكلب والحمار والصبيّ الرضيع .

(١) يعني أنه لفظها مفتوحة اللام والصواب كسرها .

وإنما عنى العتّابي إفهامك العربَ حاجتَك على مجاري كلام العرب الفصحاء . وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا ، « مكرهٌ أخاك لا بطل » و « إذا عزّ أخاك فهُن . » ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت إلى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا كلامه ، لأن ذلك يدلّ على طول إقامته في الدار التي تُفسد اللغة وتنقُص البيان . لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت ، واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة ، ولفقد الخلطاء من جميع الامم [1] .

وقال ابن المقفع : « لا خير في كلام لا يدلّ على معناك ، ولا يشير إلى مغزاك [2] » . وقال بشر بن المعتمر ـ وهو أحد بلغاء المعتزلة ـ : « ... والمعنى ليس يشرُف بأن يكون من معاني الخاصّة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامّة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦١ - ١٦٣ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ١١٦ .

المقال ... »[1] وقال : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »[2] .

وذكر الجاحظ إجماعهم على مذمّة التكلّف فقال : ومدار اللائمة ومستقر المذمّة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلّف[3] .

ولو رحنا نستقصي أقوالهم في البلاغة لما رأينا فيها ما يخرج عما ذكرنامن الأقوال السابقة، وخلاصتها أنهافي الكلام الذي يصيب معناه بوضوح وسلامة ، مع خلوّه من التكلّف والفضول ، ومراعاته لمقتضى الحال . وقد زاد بعضهم على ذلك شروطاً تتصل باللفظ كأن تكون الألفاظ غير متوعّرة وحشيّة ، ولا ساقطة سوقية ، وأن يختار اللفظ الكريم للمعنى الشريف .

فالبلاغة إذاً ـ في نظر البلغاء ـ ليست أمراً مستقلاً عن اللغة ، بل

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٣٦ .
(٢) المصدر السابق ١ : ١٣٨ و ١٣٩ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٣ وانظر أيضا ٢ : ١٨ .

هي الأمر الذي يساعد اللغة على أداء وظيفتها التي هي التعبير أو الإبلاغ، وهي شاملة لعنصري اللغة : المعنى واللفظ .

ولا شك أن في اشتقاق لفظة « البلاغة » من مادة « بلغ » ما يشير إلى الوظيفة الأساسية للبلاغة ، ذلك أن « بلغ الشيءُ » يعني وصل وانتهى ، وبلغ الكلامُ إذاً يعني أنه وصل إلى المخاطب وانتهى إليه . والإبلاغ هو الإيصال . وكأن الذي يوصل ما في نفسه من الأفكار إلى المخاطب على أتمّ وجه وأكمل صورة هو البليغ .

ويقال : بلُغ الرجل إذا صار بليغاً . وفي اللسان : « رجل بليغ.. حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه » . وما هي وظيفة اللغة إذا لم يستطع صاحبها أن يبلغ بها كنه ما في نفسه ، وأن يبلغ بهذا الكنه ـ عن طريقها أيضاً ـ نفسَ المخاطب . ومن الحق ألاّ نقبل من المتكلم مجرّد إفهامنا ، وإلا كان هو وكلُ من يُفهمنا من الأطفال سواء، ولقد سمعنا الجاحظ يقول: إننا قد نفهم بحمحمة الفرس وصغاء السنور كثيراً من حاجاته وإرادته . ولذلك لم يكن شرط الإفهام وحده كافياً لتحقق البلاغة . بل لا بدّ فيه من أن يكون إفهاماً يعتمد على وضوح المعنى وبيانه وملاءمته لمقتضى الحال ، وبالطريقة التي تعارف عليها فصحاء العرب في مجاري كلامهم .

ولعل هـــذا الاتصال الشديد بين معنى البلاغـــة اللغوي والاصطلاحي هو الذي جعل القدماء يستعملون البلاغة والفصاحة بمعنى واحد . فلقد كانت الكلمتان عندهم مترادفتين حتى القرن الرابع تقريباً، وفي صحاح الجوهري (٣٩٣هـ) أن البلاغة هي الفصاحة ، وكذلك هي عند الكثيرين ممن تحدثوا عن الفصاحة وشروطها وهم يريدون البلاغة، ذلك أن معنى الكلمتين اللغوي واحد تقريباً، فالإبلاغ عما في النفس هو الإفصاح ، وأفصح عما في نفسه أعرب عما فيها وأبان ، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر ... وهكذا ترجع الكلمتان إلى معنى واحد من قبيل اتفاق المعاني على اختلاف الأصول والمباني .

وقد لاحظ علماء البلاغة هـــذه الصلة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي للبلاغة، كما لاحظوا الصلة بين البلاغة والفصاحة . قال أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) : « البلاغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلَّغتها غيري . ومبلغ الشيء منتهاه . والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغةً لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه [1] » .

وقال مشيراً إلى الصلة بين البلاغة والفصاحة : « فالفصاحة والبلاغة

---

(١) كتاب الصناعتين : ٦

ترجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والاظهار له »[1] .

ونحن لن نستقصي هنا ما قاله العلماء في تعريف البلاغة ، فسيمر بنا ذلك مفصلاً فيا بعد ، ولكننا نشير منذ الآن إلى أن البلغاء الذين أُخذت البلاغة من كلامهم، وعُرفت في أساليبهم قبل أن تعرف في حدود المؤلفين وتعريفات المصنّفين ، كانوا ينظرون إلى البلاغة على أنها هي الوسيلة إلى الاعراب عما في النفس بصورة تمنع من سوء التعبير وسوء الفهم وتصل بالمعنى إلى القلب . ولا شك أن ذلك يعني أنهم جعلوها في منزلة مساوية لمنزلة اللغة ، إن لم تكن هي نفسها منزلتها ، لأنه إذا كانت اللغة هي وسيلة التفاهم بين الناس فإن كل ما يؤدي إلى هذه الغاية أو يعين على بلوغها فهو جزء من اللغة متمم لها وقيمته من قيمتها ، وكذلك كانت البلاغة عند أصحابها من البلغاء المطبوعين .

لقد كان البليغ المطبوع يعرف للبلاغة أو للفصاحة شروطاً يحس بها فيراعيها في كلامه ، وكان العربي المطبوع يسمع الكلام البليغ أو الفصيح فيميزه وينفعل له، وقد يطلق عليه حكماً من الأحكام ...

---

(١) كتاب الصناعتين : ٧ .

وسنرى أن ما أحسه البليغ من الشروط فراعاه ، وما رآه العربي في الكلام من جمال فأعجب به واستحسنه ، أَو من قبح فنفر منــه واستقبحه ، وما أطلقه إثر أستحسانه أو استقباحه ، وما وصف به المجيدين من أصحاب البيان ، أو ما أخذه عليهم من التقصير أو الزلل.

سنرى أن كل ذلك كان نواة للعلم الذي تطوّر حتى استقلّ وعرف فيما بعد بالبلاغة . ولم ينظر أحد من هؤلاء وأولئك إلى البلاغة ـ كما ينظر معظمنا إليها اليوم ـ على أنها أمر تزيين وزخرفة يلجأ إليهـا من يحب زخرفة القول أو يسعى وراء تزيين الكلام .

★ ★ ★

الفصل الثاني

ظواهر بلاغية في العصر الجاهلي

آ ـ ما تحدث تاريخ أمة من الأمم بما تحدث به تاريخ العرب من حب هؤلاء القوم للغتهم ، وعنايتهم بشأنها ، واحتفائهم بها .

لقد أحلَّ العرب لغتهم من حياتهم المحل الأول ، فكان لا يكون العربي في نظرهم كاملاً ما لم يبلغ من لسانه الغاية ، وكان من يبلغ بلغته نثراً أو نظماً منزلةً رفيعةً من الخطابة أو الشعر تبلغ به لغته منزلةً أرفع بين قومه وأبناء عشيرته ، وهو بلغته تلك الرفيعة البليغة يبلغ بقومه أو عشيرته مبلغاً عظيماً بين القبائل والعشائر .. ولذلك كانوا إذا نبغ منهم شاعر أو خطيب أولموا له واحتفوا بـــه وجعلوه عيداً لهم وفخراً .

وهذا الاحتفاء العظيم باللسان يفسّر لنا لماذا كان أهل اللسان من

خطباء وشعراء هم رؤساء الوفود عند العرب وسفراءهم وممثليهم .. وهم عندهم أَهل الرأي والشورى .

ولم يكن حب البلاغة مقصوراً على فئة خاصة منهم ، وإنما كان طبع العرب كافة . إنه أَقرب إلى أن يكون غريزة فيهم أو فطرة فطروا عليها ، وهو أعمق وأعمّ من أن يكون صفة لطائفة معينةمنهم، بل لقد شاع حتى بين عامتهم ، وشارك فيه نساؤهم وأطفالهم ، وما أكثر ما روي عن نسائهم وأطفالهم من أقوال وأجوبة بلغت من البلاغة مبلغاً جعلها تسير حتى يومنا هذا مسيرَ المثل والحكمة .

واستمر ذلك فيهم ، وتسلسل في ذراريهم ، حتى بدأ اختلاطهم بغـــيرهم ، وبدأت سلائق أَهل المدن تضعف وتفسد ، فخافوا على سلائق أَولادهم، فأخذوا يبعثون بهم إلى البادية ليظلوا في حجر العربية الصرف البعيد عن كل شائبة .

ب ـ إن طبيعة الحياة العربية قبل الاسلام كانت طبيعة ذات صلة خاصة باللغة وبلاغتها وفصاحة بيانها ، وذلك أنها كانت حياة قائمة على التفاخر والتكاثر بالأَنساب والأَجداد والمآثر والأَيام ... والشعر هو الديوان الذي كانوا يفزعون إليه ليسجلوا فيه كل تلك المفاخر .. ولا بد

للشعر وللشاعر من لغة تفصح وتبين لترفع أو تحط ، وتُعلي أو تضع.. فاللغة إذاً سلاح القوم وآلتهم في ميدان الفخر والشرف .

ج ـ كانت للعرب أسواقهم الأدبية التي يقيمونها في مواسم معيّنة يستعدّون لها ويتوافدون إليها من كل حدب وصوب ، وكانت عدة كل منهم في تلك الأسواق لسانه « يحمل إلى السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليامي واليمني والعماني كلٌ ألفاظَ حيّه ولغة قطره فما تزال عكاظ بهذه اللهجات تخـلاً واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ، ويطرح المجفو الثقيل »[1] وأسواق العرب تلك أشبه بمؤتمرات أدبية أو معارض لسانية تخرج القبيلة فيها عن عزلتها، ويسود فيها جوّ من فصاحة اللسان ونصاعة البيان، وهي أسواق عرف العرب فيها أولَ نوع من أنواع الوحدة . وهي وحـدة اللغة الأدبية التي انمحت أمام جودتها وفصاحتها لغاتُ القبائل المحلية ، فلم تظهر فيها كشكشة ولا عنعنة ولا طمطمانية.. وإنما كانت لغة مختارة منتقاة عرفتها القبائل يوم عرفت قريشاً ، وقريش أوسع القبائل نفوذاً ، وأكثرها نشاطاً ، فإلى أرضها يحج العرب ، وإليهم في بلادهم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب تصل قوافلها وتجارها في رحلتي الشتاء والصيف .

(١) أسواق العرب : ٢٤٢ .

وكان للغة قريش أوفى نصيب في اللغة التي اختارها العرب لغةً لأسواقهم الأدبية ولغتهم الموحدة .

يقول الاستاذ سعيد الأفغاني بعد أن يعدد أحداثاً مما يجري في عكاظ من سياسة ومنافرة وحرب وتجارة وأدب : « .. والآن نستطيع أن نفهم لمَ يعدّ مؤرخو الأدب عكاظَ في أول ما وحّد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن، وهيأ لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات.»[1] .

وتلك الوحدة اللغوية هي التي نزل القرآن فرسخها وأرسى قواعدها ، وذلك حين تنزلت آياته على ماعرف العرب — في نموذج اللغة الموحدة — من سنن القول وأساليب الخطاب .

« — لو لم تكن لغة القرآن هي نفسها اللغة الموحدة التى تعارفوا عليها قبل نزوله ، لما كان هناك وجه للتحدي الصارخ الذي واجههم به ، أو أن هذا التحدي كان للقبيلة التي نزل بلسانها . . . وبذلك كانت كل قبيلة غيرها تستطيع أن تكون بعيدة عن التحدي غير مقصودة به ، إذ أنه أُنزل بلغة غير لغتها ولحن غير لحنها ... ولقد

(١) أسواق العرب : ٢٩٠

سمعنا التحدي وسمعناه شديداً معاداً مكرراً — على نحو ماسنرى بعد قليل — ولم نسمع أن أعرابياً واحداً من أية قبيلة ردَّ على التحدي أو صرفه عنه بمثل هذا القول . إن للتحدي وجهاً واحداً لايزول عنه ، ولا يقوم من دونه ، وذلك بأن تكون لغة القرآن التي بها نزل هي لغة العرب التي كانوا بها يتكلمون .

٥ ـ إن كثيراً من الشعراء الجاهليين انصرفوا إلى الشعر انصراف عناية وتنقيح ، قال الجاحظ « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً (١) وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه . فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلدات والمنقحات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً (٢) وشاعراً مفلقاً (٣) .. » فالانصراف إلى الشعر وتنقيحه عند من عرفنا من أصحاب الحوليات وعبيد الشعر إنما هو في الحقيقة حرص منهم على أن يكونوا من فحول الشعراء وبلغائهم ، ورغبة في تنزيه شعرهم مما أُخذ على غيرهم .

(١) سنة كريت : تامة . (٢) شاعر خنذيذ: فحل مجيد .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٩

و ـ إن معرفة العرب للعيوب اللسانية وعدّهم لها منذ عصر مبكر يدلّ على أنهم عرفوا جيّد الكلام ، وعرفوا خصائصه ، كما عرفوا قبيحه وعيوبه ، وميّزوا بين الرفيع السامي من الكلام والرذل المجفوّ... وكان لكل كلام عندهم طبقة ، ولكل ميزة أو عيب اسم ، فكان من عيوب اللسان عندهم الفأفأة والتمتمة والعُقلة والحُبسة واللكنة والحُكلة[1]... ، ومن عيوب الكلام عندهم الضعف واللحن والاستعانة والفساد ونقص البيان ....

وكل هذا يعني أن البلاغة في نظرهم أمر مقصود ، وأنها وجدت في كلامهم ـ خطبهم وأشعارهم ـ بشكل عملي . وأمّا من الناحية النظرية فليس أمامنا سوى ظواهر بلاغية منثورة فيما أطلقوه من أحكام نقدية في مناسبات المفاضلة والمفاخرة . لقد كانت صفات الكلام البليغ موجودة عملياً فيه قبل أن تعرف بأسمائها وتعريفاتها ، وعرفها القوم بطبائعهم ، ومالت إليها نفوسهم ، وتناقلتها ألسنتهم ، قبل أن يكون لها بينهم اسم يتواضعون عليه ، أو تعريف يصطلحون عليه .. ثم كان منهم من نفذ إلى موطن الجمال من الكلام البليغ ، فوقف عنده ونبّه عليه ، وكانت لهم من وراء ذلك أقوال وأحكام .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٩ .

والذي يعود إلى أخبار النقد العربي في نشأته الأولى ، أو إلى أخبار أسواق العرب الأدبية ، أو إلى المذاكرات الأدبية التي كانت تدور في حضرة الملوك ، يعرف الكثير من تلك الأقوال والأحكام [1] .

ففي عكاظ كانت قبة النابغة الذبياني الحمراء ، وفيها كان يجتمع من حوله الشعراء، وفيها صدر حكمه للأعشى وللخنساء على حسان .

وفي المدينة عابوا على النابغة إقواءه في شعره ونبهوه عليه .

وفي بيت المتلمّس :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره ... بناجٍ عليه الصيعريّة مكدم

قال طرفة : « استنوق الجمل » !

وقالوا عن لامية حسان :

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول

إنها « البتّارة » . وعن عينية سويد بن أبي كاهل

بسطت رابعة الحبل لنا ... فوصلنا الحبل منها ما اتسع

إنها « اليتيمة » .

---

(١) انظر كتاب (أسواق العرب) للأستاذ سعيد الأفغاني. وباب النقد الأدبي في العصر الجاهلي ، في كتاب (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) للاستاذ طه ابراهيم .

ويعدّد الاستاذ طه ابراهيم أمثلة كثيرة من هذا النقد ثم يقول : « كان الشعر عند نقدته من الجاهليين صياغة وفكرة ... فالصياغة والمعاني هي ما ينقد في الشعر الجاهلي »[1] .

والحق أننا لو تتبعنا هذه الأحكام لرأيناها أحكاماً قليلة بالنسبة إلى ما قالوا من شعر ونثر ، ولرأينا أكثرها خالياً من التعليل ، وعرفنا أنها أحكام ارتآها أصحابها فأطلقوها، فسارت غير مقترنة بأسبابها ولا مفسَّرة بما يؤيدها ..

وأما القليل المعلَّل من تلك الأحكام فقد توزعت علله بين معانٍ أُعجب بها صاحب الحكم فحكم لصاحبها ، أو قيمة خُلُقية كان الحكم للشاعر بسببها ، وإن كان هذا النوع من الأحكام قد شاع وانتشر في عصر صدر الاسلام بصورة أوضح .

إن مجمل ما نستطيع أن نقوله بصدد الظواهر البلاغية التي تضمنتها أحكام النقد في الجاهلية ، أنه كانت هناك أحكام نقدية خاليـــة من التعليل، وأن الأحكام المعللة قليلة أصلاً ،وأن ماعُلل منها فأغلب علله غير بلاغية . وحين يكون التعليل متصلاً بأمر من أُمور البلاغة

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ١٦ وانظر في موشح المرزباني نقد قيس بن معديكرب للأعشى .

فليس معنى ذلك أكثر من وجود حسّ ذوقي صدر عنه الحكم النقدي وعبّر عنه صاحبه بشكل شخصي أو فردي.

وبعبارة أوضح : إن البلاغة إذ ذاك كانت أمراً فطروا عليه ، أو هدتهم إليه سلائقهم ، وعشقته نفوسهم . وألفته ألسنتهم وآذانهم ، فهم يعرفونه ولا يكادون يختلفون عليه ، ولكننا لم نعرف لهم كلاماً فيه يبيّن عناصر البلاغة التي كانوا يتوخّون .

* * *

الفصل الثالث

البلاغة في ظلال القرآن

سمع العرب آيات الكتاب المبين فشدهوا بما عرفوا فيها من أساليب البلاغة ، وحاروا في تعليل دهشتهم وإعجابهم ، وهم أهل اللغة وأرباب البلاغة ؛ لقد سمعوا لغة من لغتهم ، وجملاً من حروفهم، ولكنهم لم يسمعوا قبلها مثلها في نثر ناثر ، ولا شعر شاعر ، ولا سجع كاهن ، حتى قال قائلهم: « إنه سحر ساحر !.. » وعن ابن عباس قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له. قال: وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا

بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه معذق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أُفكر . فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره [1] . « إنه فكر وقدَّر . فقُتِل كيف قدَّر . ثُم قُتِل كيف قدَّر . ثمَّ نظر . ثم عبس وبَسَر . ثم أدبر واستكبر . فقال إنْ هذا إلاّ سِحرٌ يُؤثر » [2] .

لقد أَدرك الوليد بلاغة القرآن ، وخضع وأَذعن حتى استفزّته حميَّة الجاهلية فعاد إلى عناده ، وسار بهوى أَصحابه ، « إنه كان لآياتِنا عنيدا » [3] .

والعرب إنما عرفوا البلاغة في القرآن معرفة الفطرة والسليقة ، لا معرفة العلم والاكتساب، وراحوا يتدبرون أمرهم بينهم فيما يعلّلون به هذا الكلام الساحر والأسلوب الآسر ؛ يسمعه أحدهم للمرة الأولى فإذا هو يترك دين الآباء والأَجداد ، وعصبية الأَهل والنسب ،

---

(١) الاتقان : ١١٧

(٢) سورة المدثر ٧٤ : ١٨ - ٢٤

(٣) المدثر ٧٤ : ١٦ وانظر أسباب النزول للواحدي : ٣٣٠

وحميّة كانت منه قوام الحياة ، ويرضى بالطرد والملاحقة والتعذيب .

فما أكثر الذين سمعوا آية أو آيتين يتلوهما الرسول الكريم فإذا هم بعد ذلك مسلمون . بل إن عمر بن الخطاب ، وهو صاحب المعرفة بكلام العرب ، وهو الذي حكم للنابغة وحكم لزهير ، وكان حكمه لزهير خاصة حكماً معلَّلاً لم يقتصر فيه على العنصر الأخلاقي ، ولكنه تجاوزه إلى عناصر وصفات تتصل باللغة والفصاحة ، عمر هذا يسمع آيات من سورة (طه) فتنفذ إلى أعماقه وتأسره فيبادر إلى الاسلام !

وإذا كان في استطاعة المكابرين من العرب ألا يستمعوا إلى القرآن حتى لا يغلبهم (وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القُرآن والغَوْا فيه لعلَّكم تغلِبُون)[1] واذا كان في استطاعتهم أن يتواصوا بالبُعد عنه ، فإن في ذلك إقراراً منهم بسلطانه وروعة بيانه . ولكن كيف يظلّون بعيدين عنه وعن الاستماع إليه والنظر فيه وهو يناديهم متحدياً أن يأتوا بمثله (أَم يقولون تقوَّلهُ ، بل لا يُؤمنُون . فليأتُوا بحديث مثله إنْ كانُوا صادقين)[2] وإن عجزوا ، وهم الفصحاء البلغاء ، فليأتوا بعشر سور مثله (أَم يقُولون : افْتراه . قل : فأتُوا

---

(١) فصلت ٤١ : ٢٦

(٢) الطور ٥٢ : ٣٣ - ٣٤

بعشر سُورٍ مثِله مُفترَياتٍ وادعُوا مَن استطعتُم مِنْ دُون اللهِ إنْ كنتُم صادقين)[1] . ويعجزون ويسكتون فيلاحقهم صارخاً في وجوههم ، هادراً متحدياً أن يأتوا بسورة واحدة مثله (أَم يقُولُون افتراهُ . قُل: فأتُوا بسُورةٍ مثِلهِ وادعُوا مَناستطعتُم مِن دوناللهِ إن كنتُم صادقين)[2] . حتى اذا انقطعوا عاد عليهم يلحّ في التحدّي من جهة ، ويحكم سلفاً ، من جهة ثانية ، بعجزهم عن مجاراته في اللغة التي هي لديهم أداة كل فخر (وإنْ كنتم في ريْبٍ مما نزّلنا على عبدِنا فأتُوا بسُورةٍ من مثِلهِوادعوا شُهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ أُعدّت للكافرين)[3] . وعادوا إلى الصمت ، فعاد صوته بينهم يعلن نتيجة التحدي ويدمغهم بالهزيمة (قُل: لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لايأتونَ بمثلهِ ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً)[4] .

وهكذا لم تبق أمام العرب وسيلة للصمم أو التصامم ، فإما الإيمان

---

(١) هود ١١ : ١٣

(٢) يونس ١٠ : ٣٨

(٣) البقرة ٢ : ٢٣-٢٤

(٤) الاسراء ١٧ : ٨٨

وإما المكابرة والعناد .. قال الجاحظ « بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة ، وأشدّ ما كانت عدّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا له ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه وإن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم به وتقريعاً لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً وظهر منه ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا . قال . فهاتوها مُفترَيات فلم يرُم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ...»[1].

ويقول في رسالته(حجج النبوّة) بعد حديث مسهب عن تحدي القرآن للعرب وعجزهم إزاء تحديه : « وكذلك دهر محمد ﷺ ،

(١) عن الاتقان ٢ : ١١٧ - ١١٨

كان أغلب الأُمور عليهم وأَحسنها عندهم وأجلها في صدرهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين استحكمت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله عز وجل فتحدّاهم بما كانوا لا يشكون أنهم كانوا يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينقصهم على نقصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط ... »

وهكذا تبين للناس كافة ، من آمن بأن القرآن وحي من الله، ومن لم يؤمن ، أن القرآن معجز ، لم يجادل في ذلك أحد ، ولم يكابر فيه مكابر ، ولكن الذي اختلفت فيه الآراء وتعددت المذاهب إنما هو وجه الاعجاز وسرُّه. وظهرت كتب كثيرة ومؤلفات جليلة تتناول موضوع الاعجاز ، الى جانب مؤلفات أُخرى تتناول جوانب القرآن الأخرى بالبحث والدراسة .

لقد شعر العلماء بواجبهم نحو القرآن فانصرفوا يؤلفون في مجازه ، ومعانيه ، ولغته وغريبه ، ووجوه إعجازِهِ ، وانكبوا على دراسته بما يملكون من مواهب وطاقات عقلية ونفسية ، وبما وسعته علومهم وأعمارهم ، فكانت لنا من ذلك علوم التفسير والفقه والقراءات

وعلوم النحو والبلاغة ... وليس من شأننا أن نتحدث عن الذين تناولوا القرآن من نواحيه المختلفة ، بل نحن أعجز — في هذا السرد الموجز — من أن نتحدث عن الذين تناولوا جانباً واحداً هو جانب الاعجاز في القرآن ، وأنى يكون لنا ذلك ولكلٍ ممن نظر في القرآن رأي ينبعث عن إعجاب شديد وإحساس صادق ، وينسجم مع ما يملك هو في نفسه وشعوره وعقله وروحه من وسائل الحس والتذوق والمعرفة ، إنهم أشبه بالعمال تفاوتت قواهم أمام المنجم الغني ، أو بالغواصين تباينت طاقاتهم أمام البحر ؛ إن كلاً منهم يستخرج على قدر طاقته ووسائله ، ثم يتحدث عما شاهد وعرف ، والمنجم أغنى مما شاهد ومما عرف ، والبحر أوسع مما غاص ومما غرف ، ولكنها الطاقة البشرية المحدودة أَمام الكتاب الإلهي الذي لا تنفد طاقاته وذخائره (قُلْ لَو كانَ البحرُ مِداداً لِكلَماتِ ربّي لَنفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفَد كلماتُ ربّي ولوْ جئنا بمثلِه مددا .)

المضمون البلاغي في المؤلفات القرآنية :

من الكتب التي ألفت حول القرآن كتب عنيت بتفسير غريبه وذكر معانيه ككتاب (معاني القرآن) للفراء (٢٠٧ هـ). وهو كتاب

عني صاحبه فيه بالتخريج النحوي للآيات ، كما عني بشرح الألفاظ شرحاً لغوياً تؤيده شواهد الشعر وأوجه الاستعمال المعروفة ...

ومنها كتب عنيت بتأويل الآيات وبيانُ الأساليب القرآنية من الناحية اللغوية ككتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى [1] (٢١٠ هـ). وقد كانت كلمة المجاز عنده مرادفة لكلمة التفسير أو التأويل وكان الكتاب بياناً لأساليب القرآن اللغوية في التعبير .

وكان من تلك المؤلفات كتب اتجه أصحابها إلى فكرة الإعجاز يحاولون كشفها ومعرفة أسرارها . .

ونحن حين نستعرض مادة هذه الكتب القرآنية نجد فيها إشارات كثيرة إلى أمور أصبحت فيما بعد أنواعاً بلاغية ذات أسماء أو اصطلاحات محددة .

ففي (معاني القرآن) يقول الفراء : « وقوله (فما ربحت تجارتهم...) ربما قال القائل : كيف تربح التجارة ؟ وإنما يربح التاجر ، وذلك من كلام العرب ، ربح بيعك ، وخسر بيعك ، فحسن القول

---

(١) ذكر الخطيب البغدادي (١٢ : ٤٠٤) أن أبا عبيدة أول من ألف من أهل اللغة في معاني القرآن والحق أن من اللغويين من سبقه إلى ذلك كيونس بن حبيب والأخفش الأوسط والرؤاسي والكسائي (انظر ابن النديم : ٥١)

بذلك ، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعلم معناه . ومثله من كلام العرب : هذا ليل نائم . ومثله من كتاب الله (فإذا عزم الأمرُ) وإنما العزيمة للرجال .... »[1]

وهذا ذكر واضح للمجاز ، وإن لم يسمِّه الفراء .

ويقول في موضع آخر : « وقوله (فقُلْنا اضْرِبُوهُ ببعْضها) يقال إنه ضرب بالفخذ اليمنى ، وبعضهم يقول : ضرب بالذنب . ثم قال الله عز وجل (كذلك يُحيي اللهُ الموتى) معناه والله أعلم : اضربوه ببعضها ـ فيحيا ـ كذلك يحي الله الموتى . أي اعتبروا ولا تجحدوا بالبعث ، وأضمر فيحيا . كما قال (أن اِضْرِب بعصاك البحر فانفلق) والمعنى والله أعلم : فضرب البحر فانفلق .. »[2]

وهذا ماعرف عند البلاغيين فيما بعد باسم إيجاز الحذف .

ويشير الفراء في مواضع كثيرة من كتابه إلى خروج الاستفهام عن معناه الأصلي كما في قوله « وقوله (وقل للذين أوتوا الكتاب أأسلمتم) وهو استفهام ومعناه أمر . ومثله قول الله (فهل أنتم منتهون) استفهام وتأويله انتهوا .... »[3]

---

(١) معاني القرآن ١ : ١٤

(٢) معاني القرآن ١ : ٤٨

(٣) معاني القرآن ١ : ٢٠٢

إلى غير ذلك من الإشارات الكثيرة التي تتناول الكناية والتشبيه والالتفات والتقديم االتأخير [1]

وفي (مجاز القرآن) كذلك إشارات إلى أمور بلاغية كالمجاز بمعناه البلاغي . قال أبو عبيدة « ومن مجاز ما حذف وفيه مضمر ، قال : (وسلِ القرية التي كنّا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها) فهذا محذوف فيه ضمير ، مجازه : وسل أهل القرية ، ومَن في العير » [2] وكالالتفات الذي أشار اليه أبو عبيدة بقوله « ومن مجاز ماجاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد قال :(الّم ذلك الكتابُ) مجازه : الّم هذا القرآن. ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال الله (حتى إذا كنتم في الفُلك وجَرَيْن بهم) . ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد ، قال (ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى، أولى لك فأولى) ... » [3] .

وفيه إشارات إلى التقديم والتأخير [4] ، وإلى الاستعارة في

---

(١) معاني القرآن ١ : ١٥ و ٢٣ و ٦٣ ... وانظر فصلا عنوانه (بعض ما جاء في كتاب المعاني من الدراسات البيانية) في كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي . ص ٥٣ - ٥٩ .

(٢) مجاز القرآن : ٨

(٣) مجاز القرآن : ١١

(٤) مجاز القرآن : ١٢

الأدوات [1] ، وإلى غير ذلك مما جاء في ثنايا شرحه اللغوي لألفاظ القرآن وأساليب تعبيره .

وأما الذين تناولوا موضوع إعجاز القرآن [2] فكان منهم من حاول أن يكشف عن أسرار الإعجاز في فصاحة القرآن أو بلاغته ، في أسلوبه أو نظمه . وقد كانت كلمة (الفصاحة) مازالت مرادفة لكلمة (البلاغة) إذ لم يكن لكل من الكلمتين مدلولها الخاص .

وقف القائلون بهذا الرأي يحللون فصاحة الاسلوب أو بلاغته ؛ فمن قائل إنها في ألفاظ القرآن، ومن قائل إنها في الانسجام بين الحروف أي في الأصوات بدءاً وتركيباً ووقفاً ، ومن قائل إن بلاغة القرآن في نظمه .

ولعل الجاحظ (٢٥٥ هـ) كان من أوائل الذين تحدثوا عن موضوع الإعجاز وعللوه بما في القرآن من نظم غريب ، ومافي تأليفه من تركيب بديع ، بل إنه أفرد لذلك كتاباً سماه « نظم القرآن» [3] ومع

(١) مجاز القرآن : ١٤

(٢) للإعجاز كتب خاصة يرجع إليها من شاء التفصيل ومعرفة الآراء المختلفة في الاعجاز وأسراره ككتاب إعجاز القرآن للباقلاني ، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني . والاتقان في علوم القرآن للسيوطي . وانظر في تاريخ فكرة الإعجاز وتسلسل التأليف فيها مجلة المجمع بدمشق ، مجلدات الأعوام ١٩٥٢-١٩٥٥

(٣) معجم الأدباء ٦ : ٧٦

أن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، فإننا نستطيع أن نرى في عنوانه اتجاه الجاحظ في تعليل الاعجاز وتفسيره . وقد كشف الجاحظ عن اتجاهه صراحة حين ذكر كتاب نظم القرآن ، وقال إنه وضعه في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه [1] . ولم يقنع الباقلاني (٤٠٣ هـ) على ما يبدو بما ذكره الجاحظ في كتابه إذ قال عنه في مقدمة كتابه إعجاز القرآن: « وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى » [2] .

وأقوال الجاحظ في الموضوع منتشرة في كتبه ، وليس يعنينا في هذا البحث أن نتتبع أقواله في إعجاز القرآن ووجوهه ، وإنما يعنينا ما جاء خلال عرضه لأقواله من أمور بلاغية ، وخاصة أنه يري إعجاز القرآن في نظمه ؛ فلقد سمعنا منه أنه لما استحكمت لغة العرب وشاعت البلاغة فيهم جاء القرآن يتحداهم بما كانوا يعتقدون أنهم قادرون على أكثر منه . وإيمان الجاحظ بأن للقرآن أسلوباً فريداً

---

(١) الحيوان ١ : ٩

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ٧

ونظماً معجزاً جعله يقف في كل مناسبة ليبين البلاغة التي احتوت عليها آيات الكتاب المبين [1]، بل إنه كثيراً ما يحتج لفصاحة لفظة أو بلاغة أسلوب بوجود نظيره في كتاب الله وهو يقول « ... وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدقٌ نظمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به » [2].

وأما ما أثمرته ملاحظات الجاحظ البلاغية وما تناوله من بحوث البلاغة في كتبه بصورة عامة فسيكون له موضع نفرده له [3].

وكذلك أعلن العسكري (بعد ٣٩٥ هـ) في (الصناعتين) أن البلاغة هي الطريق لإدراك الإعجاز فقال « إن الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمة وجزالتها وعذوبتها وسلاستها؛ إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها » [4].

---

(١) انظر الحيوان ٤ : ٤، ٣٩، ٤٦، ٥٦، ٥٧، ١٠٠، ٢٧١–٢٧٣، ٢٧٨ و ٥ : ٢٨، ٣٢، ٤٢٥ ...

(٢) الحيوان ٤ : ٩٠

(٣) انظر الفصل الرابع : البلاغة في كتب الأدب .

(٤) كتاب الصناعتين : ٢

ويصرّح الباقلاني (٤٠٣ هـ) أن من وجوه إعجاز القرآن بديع نظمه الذي يتميز عن أساليب الكلام المعتاد «فهو بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه»[1]. وإنه ليس للعرب كلام يشتمل على فصاحة القرآن[2]. ويشير الباقلاني في آخر مقدمته لكتابه إلى أن الاعجاز لا يظهر إلاّ لمن عرف الأدب وفنون اللسان وأتقن صناعة العربية[3] ...

ولا بد من الاشارة إلى أن النظر في أسلوب القرآن واتخاذه المقياس البلاغي الأمثل أدى إلى النظر في الأساليب الأدبية: نثرها وشعرها، والموازنة فيما بينها... ولقد رأينا كيف كان الجاحظ يحتج بألفاظ القرآن وآياته، يقيس بها ويوازن، وكذلك نرى الباقلاني — وهو في معرض الكشف عن إعجاز القرآن — يقف وقفة الناقد البصير ليوازن بين نظم القرآن ونظم ما أجمع العرب على استحسانه من نثر وشعر، وذلك في باب طويل[4] جيد ينتهي فيه إلى بيان الفرق بين كلام الآدميين وكلام رب العالمين.

---

(١) إعجاز القرآن: ٥١
(٢) إعجاز القرآن: ٥٣
(٣) إعجاز القرآن: ٨
(٤) إعجاز القرآن: ١٩٦ – ٣٧٩

وتصل البلاغة إلى ذروتها في كنف إعجاز القرآن على يد الامام الجرجاني (٤٧٢ هـ) صاحب (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) ونحن لن نتعرض للكتابين هنا من وجهة نظر بلاغية خالصة ، لأن لذلك محلاً آخر في بحثنا ، ولكننا ننظر فيهما إلى البلاغة من خلال الكشف عن فكرة الاعجاز فنرى أن إعجاز القرآن والتعليل له هو الغرض الذي أملى على الجرجاني تأليفه ، وأن هذه الفكرة التي حدت بالعلماء السابقين إلى التأليف هي نفسها التي وصلت بالبلاغة على يد الجرجاني إلى أن تصبح فكرة علمية أو علماً ذا كيان .

إن الامام عبد القاهر الجرجاني من خلال شرحه لفكرة (النظم) التي عزا إليها إعجاز القرآن ، ثم من خلال بيانه لـ (أسرار البلاغة) استطاع أن يبلغ القمة في التأليف البلاغي الذي يصوغ من البلاغة علماً دون أن يتنكر للذوق وحس الجمال .

إن فكرة إعجاز القرآن ما زالت تتردد في الأذهان ، وتتسع للآراء والأقوال ، حتى كان لنا منها وفيها كتابا الجرجاني الخالدان (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) وهما الكتابان البلاغيان اللذان أصبحا عمدة كل بليغ بما يتصفان به من علم رصين ، وعقل راجح وذوق مرهف ، وإحساس نافذ ، كما سنرى حين الكلام عليهما .

ولعلنا لانجانب الصواب ولا نوصف بالغلوّ اذا قلنا إنـه لم يأت بعد عصر الجرجاني أَحد زاد على ما ذكره في بلاغة الاعجاز أَو البلاغـة المعجزة ، وإن كان التأليف في موضوع إعجاز القرآن ووجوهه ما زال مستمراً ، والبلاغة ما زالت دائرة على ألسن الذين تصدوا للتأليف في هذا الموضوع أَو تعرضوا له .

وكما كان لموضوع إعجازالقرآن ، كذلك كان لتفسير القرآن فضل كبير في بناء صرح البلاغة ؛ فقد ظهر بين المفسرين من كانت له في فن البيان يد بيضاء وهو الزمخشري (٥٣٨ هـ) الذي تعرّض في تفسيره (الكشاف)لكثير من فنونالبيان والمعاني ، وكان له فضل الكشف عن كثير من وجوه البيان ... والزمخشري — إذا ذُكر أصحاب المعاجم كذلك — كان له بينهم فضل السبق والتنبيه على ضرورة ذكر المعاني المجازية للألفاظ على نحو ما صنع في أساس البلاغة .

والذي يتتبع البلاغة في كتب الإعجاز ، ولا سيما دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، يدرك تمام الإدراك أن تلك الموضوعات أصبحت على درجة من النضج تستطيع معها أن تستقل وتفرد بالبحث والتأليف على نحو ما آلت إليه فيما بعد ...

وهكذا نشأت البلاغة وترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه ... وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علماً مستقلاً يُخَصّ بالتأليف . بل لقد ظلت البلاغة بعد نضجها واستقلالها أيضاً عالقة بفكرة إعجاز القرآن والدفاع عنها ، فهذا السكاكي (٦٢٦ هـ) في (مفتاح العلوم) يتعرّض لهامع مافي كتابه من بحث نظري قائم على التبويب والتقسيم ... وهذا ابن أبي الإصبع (٦٥٤ هـ) يهتم في (بديع القرآن) بفكرة الكشف عن وجه الإعجاز ... وهـــذا الخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) صاحب (التلخيص) يضع كتابه في شرح علوم البلاغة ذاكراً في مقدمتـه أن فكرة الاعجاز كانت السبب في وضع الكتاب ، يقول : « علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدراً، إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها .. » وهذا صاحب الطراز يحيى بن حمزة اليمني (٧٤٩هـ)يقول في مقدمة طرازه « إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الاخوان شرعوا عليّ في قراءة كتاب (الكشاف) تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري ، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فاتضح عند ذلك وجه الاعجاز من التنزيل ... وتحققوا أنـــه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز

القرآن إلا بإدراكه ، والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير ، لأني لم أعلم تفسيراً مؤسساً على علمي المعاني والبيان سواه ، فسألني بعضهم أن أملي كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى اللفظ ، والتحقيق يرجع إلى المعاني إذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثاني »[1] ..

وإذا كان صاحب الطراز يتعرض في كتابه لموضوع الاعجاز ، فإننا نلاحظ أن هذه الفكرة التي أملت على المؤلفين أن يضعوا كتبهم، وكانت محور تلك الكتب قد أصبحت فيما بعد تملي عليهم وضع كتبهم ثم لا تتعدى الإشارة إليها في كثير من تلك الكتب صفحاتها الأولى ومقدماتها ، وأما الكتب نفسها فمبوبة ومقسمة على أسس بلاغية نظرية لا تتصل بفكرة إعجاز القرآن بأكثر من الشواهد التي يستقيها المؤلف من القرآن لشرح الفنون البلاغية والاستشهاد لها .

---

(١) الطراز : ٥ .

الفصل الرابع

البلاغة في كتب اللغة والأدب

كما كانت البلاغة شديدة الصلة بموضوع إعجاز القرآن ، فتناولتها كتب الإعجاز خاصة والكتب القرآنية عامة، كذلك كانت متصلة باللغة والأدب والنقد ، فقلّ أن يخلو من الإشارة إلى موضوعاتها كتاب من كتب اللغة أو الأدب أو النقد .

ففي كتاب سيبويه (١٨٠ ﻫ) إشارات كثيرة مما دخل فيما بعد تحت اسم البلاغة ، وإن كانت شهرة سيبويه في النحو قد صرفت الناس عن البحث عن الجوانب الأخرى من (الكتاب) ، على أن النحو الذي نعرفه اليوم لم يكن في عصر سيبويه مستقلاً عن سائر علوم العربية، وإنما كان جزءاً منها. و (الكتاب) ليس كتاب نحوٍ فقط ، وإنما هو كتاب في علوم العربية ؛ فيه اللغة والنصوص ، وفيه النحو والصرف ، وفيه

البلاغة والعروض، وفيه القراآت والتجويد[1]، كما أن النحو نفسه لم يكن عند سيبويه وأمثاله مقصوراً على الإعراب والبنــــاء، وعلى الجزئيات الفرعية التي نُعنى بها اليوم، وإنما كان علماً يؤدّي إلى فهم كلام العرب، وعدم اللحن فيه، والتأليف على سمتـه، ولذلك فنحن نجد في الكتاب باب اللفظ للمعاني[2]، وباب ما يكون في اللفظ من الأعراض[3]، وباب الاستقامـــة من الكلام والإحالة[3]، وباب ما يحتمل الشعر[3]، وباب مـا يجوز من (إيّا) في الشعر ولا يجوز في الكلام[4]، كما نجد فيه أبواباً في الإمالة[5]، وأبواباً في الوقف[6] ...

ونحن لو استعرضنا بعض أبواب الكتاب لوقفنـا على كلام في البلاغة، ولكنه يختلف عن كلام البلاغيين الذين عرفوا المصطلحات والتقسيمات، يقول سيبويه: «هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى، لاتساعهم في الكلام وللإيجاز والاختصار ...» ويستشهد على

(١) انظر بحث مادة الكتاب في (الرماني النحوي) ص ١١٧
(٢) الكتاب ١ : ٨
(٣) الكتاب ١ : ٨
(٤) الكتاب ١ : ٣٨٢
(٥) الكتاب ٢ : ٢٥٩ - ٢٧٠
(٦) الكتاب ٢ : ٢٨١ - ٢٨٩

ذلك بقوله تعالى (واسألِ القرية التي كُنّا فيها والعِيْر التي أقبلنا فيها) ثم يقول : « إنما يريد أهل القرية فاختصر ... » ، ومثله (بل مكر اللّيلِ والنهارِ) وإنما المعنى بل مكركم في الليل والنهار ، وقال تعالى : (ولكنَّ البِرَّ مَن آمن باللهِ) إنما هو ولكن البرَّ برّ من آمن بالله ، ومثله في الاتساع قوله عز وجل (ومثل الذين كفروا كَمَثَل الذي ينعِق بما لا يسمع إلا دُعاءً ونِداء) فلم يشبَّهوا بما ينعق ، وإنما شُبهوا بالمنعوق به ، وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع ، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى . ومثل ذلك من كلامهم : بنو فلان يطؤهم الطريق ، وإنما يطؤهم أهل الطريق ... »[1].

ومثل ذلك ما يقوله في تعليل الإضمار والحذف ،[2] وتعليل تقديمهم للفاعل ،[3] وكل ما يتصل بالمسند والمسند إليه وما يعترضها من حذف وذكر ، وتقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ... وما يتصل بأساليب العرب في التعجب والاستفهام وخروجه عن معناه[4].

(١) الكتاب ١ : ١٠٨ – ١٠٩ وانظر ١ : ١٦٩

(٢) انظر الكتاب ١ : ١٣٨ و ١٤٠ و ١٤١

(٣) الكتاب ١ : ١٥

(٤) انظر مثلا الكتاب ١ : ٣١٨ و ٣١٩

ثم ظهرت كتب الجاحظ (٢٥٥ هـ) فكانت ممتلئة بأحاديثه المسهبة عن البلاغة ، كما كانت ممتلئة بالنماذج الأدبية والأقوال البليغة ؛ لقد كان الجاحظ موسوعي الثقافة كثير المحفوظ ، كما كان الأديبَ البصير بأدوات الأدب وما يقوم به من لغة وفكر وحسّ وتصوير ، أطاعته الألفاظ فأعطته من قيادها مالم تعطه أحداً ، وعاشت العربيـــة على لسانه حيَّة نديّة ، فكانت له في معرفة جيد الكلام وبليغه ، وفي تمييز طبقات الكلام ، خبرة لم تكن لأحد غيره ، فاستطاع أن يسهم في ميدان البلاغة بما لم يسبقه إليه أحد .

تناول الجاحظ موضوعات البيان والفصاحة والبلاغة ، ولم يكن لكل من هذه الألفاظ مدلول خاص متميز، فعرّف البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس ويونان ورومان وهنود[1] ، ونقل أقوالاً كثيرة في البلاغة[2] ، وعلّق على بعض هذه الأقوال تعليقاً يشرحها ويوضحها، قال: « حدثني صديق لي قال : قلت للعتابي : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجتك من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ... »[3] ثم عاد في موضع آخر ليقول : « والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك

(١) البيان والتبيين ١ : ٨٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ...

(٣) البيان والتبيين ١ : ١١٣

حاجته فهو بليغ لم يعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولَّدين والبلديين قصدَه ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن نكون قد فهمنا عنه . ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له : لمَ اشتريت هذه الأُتان ؟ قال : أركبها وتلَد لي . وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً . وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي ... وقد فهمنا قول الخراساني ... فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواءً وكله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه ، ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء بكلامهم ، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي ، وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم، فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ، ونفهم بصغاء السنور كثيراً من إرادته ، وكذلك الكلب والحمار والصبيّ الرضيع . وإنما عنى العتابي إفهامَك العربَ حاجتك على مجاري كلام

العرب الفصحاء ... »[1] .

وأثار الجاحظ بعض القضايا البلاغية العامة كالعيوب اللسانية التي جاءت عنده تحت عنوان (ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة) [2] كما تعرض لها عند الحديث عن عيوب الخطباء ... ونبّه على وجوب مراعاة مقتضى الحال ، وقسّم الكلام إلى طبقات تتناسب مع طبقات الناس فقال: « وكما لاينبغي أَن يكون اللفظ عامياً وساقطاً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ، إلا أَن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانةالسوقيّ . وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسمج ، والخفيف والثقيل ،وكله عربيّ ، وبكلٍ قد تكلموا ،وبكلٍ قد تمادحوا وتعايبوا ... »[3] .

وتعرض الجاحظ لكثير من الفنون البلاغية ، فعرضها عرضاً يمتاز بالجمع بين الحديث النظري والنموذج التطبيقي ؛ في البيان والتبيين

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦١ – ١٦٣
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٤
(٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤

نماذج رائعة وكثيرة لكل ما عرض له الجاحظ من فنون البلاغـــة وأساليب البيان ، لقد عرض للبديع ، فذكر أصحابه ، وعدّد شعراءه[1] ، وعرض للإيجاز ، فبيّن فضله وأتى بنماذج منـه[2] . وتحدث عن الإطناب ، فذمه وذم التكلّف فيه[3] . وذكر الازدواج ومثّل له .[4] وتحدّث عن السجع وجاء بنماذج منه[5] .

وتعرض الجاحظ أيضاً للمجاز والتشبيه ، وذكرهما في كثير من المناسبات ، ففي البيان والتبيين كثير من التشبيهات الرائعة[6] . وفي كتاب الحيوان وقفات موفقة ولفتات ذكية تدل على إدراك الجاحظ لحقيقة المجاز ولأركان التشبيه ، ففي مناقشته لرأي النظام في الاحتراق والنار ... يقف ليتحدث عن معنى أكل النار لما تأتي عليه فيكون لنا من ذلك أبواب عن المجاز والتشبيه في الأكل والذوق[7] ، ويقف ليؤوّل قوله تعالى (يخرجُ مِنْ بُطونِها شرابٌ) فيكون لنا قول في

(١) البيان والتبيين ١ : ٥١ و ٤ : ٥٥ و ٥٦

(٢) البيان والتبيين ١ : ١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ و ٢ : ٢٧٨

(٣) البيان والتبيين ١ : ١٩٥ – ١٩٦ و ٢ : ٢٠١

(٤) البيان والتبيين ٢ : ١١٦

(٥) البيان والتبيين ١ : ٢٨٤ و ٢٨٧ و ٢٩١ و ٣ : ٦

(٦) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ٢٢٢ – ٢٢٥

(٧) الحيوان ٥ : ٢٣ و ٢٥ و ٢٨

المجاز [1]. ويقف عند قوله تعالى (إنّها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيم. طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشَّياطين) فيتحدث عن التشبيه ووجهه [2].
وكذلك يقف ليردّ اعتراض المعترضين على وجه الشبه في قوله تعالى (واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخ منها فأتبعَه الشيطانُ فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواهُ، فمثله كمثلِ الكلبِ إنْ تحمل عليه يلهثْ أَو تترُكْهُ يلهث، ذلك مثلُ القومِ الذين كذّبوا بآياتِنا) فيورد ما يدل على إداكٍ ذكيّ لوجه الشبه في الآية.[3] وقد يضمّن الجاحظ شرحه اللغوي لبعض النصوص إشارات بلاغية كما فعل حين أشار إلى الاستعارة، فسماها وعرّفها وهو في معرض شرحه لقول الراجز:

يادار قدْ غيّرها بِلاها كأنما بقلمٍ محاها
أخربها عمران من بناها وكرّ مُمساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكي على عِراصها عيناها

فقال: «... قوله: ممساها يعني مساءها، ومغناها: موضعها

(١) الحيوان ٥: ٢٥
(٢) الحيوان: ٣٩ و ٦: ٢١١
(٣) الحيوان ٢: ١٥

الذي أقيم فيه . والمغاني : المنازل التي كان بها أهلوها . وطفقت : يغني ظلّت . تبكي على عراصها عيناها ، عيناها هاهنا للسحاب . وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه [1] » .

ولقد كانت هذه الملاحظات البلاغية التي أوردها الجاحظ هي السبب الذي جعل بعض الباحثين يعتقدون « أن الجاحظ ومعاصريه قد فهموا الصلة بين المشبَّه به والمشبَّه فهماً صحيحاً ، وأنهم أخذوا يُخضعون الأدب ، وإن كان الأدب القرآني ، للمعايير النقدية والبلاغية في حرية وصرامة » [2] .

والحقيقة أن الجاحظ على كثرة ما كتب في البلاغة لم يكن يُعنى بوضع المصطلحات ، أو صياغة التعريفات والحدود ، وإنما كان أديباً بليغاً بطبعه وعقله وذوقه ، فكان يقف أمام النصوص ليشرحها ، أو يعلّق عليها ، أو يدلّ على ما فيها من مواطن الجمال أو حسن البيان مستعيناً على ذلك بشواهد كثيرة يمدّه بها محفوظ وافر من القرآن

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٥٣

(٢) البلاغة العربية للدكتور سيد نوفل : ١٣٩ وانظر أيضاً أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٨٠ - ٩٨

الكريم وكلام العرب . يقول الدكتور شوقي ضيف : « إن الجاحظ قد ألم في كتاباته بالصور البيانية المختلفة ، وبكثير من فنون البديع غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات : فقد كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية ، وقلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها »[1] .

على أننا لا نرى أن إيراد النماذج شغل الجاحظ عن التعريف والتحديد، وإنما نرى أن ذلك أسلوب اختاره لنفسه ،ولو اختار أسلوب المؤلفين الذين عرفناهم يُعنَوْن بالتعريفات والتحديدات لأتى به وطبقه .وإن أسلوبه عندنا لأجدى ، ثم هو أسلوب لا يقوى عليه إلا من كان بليغاً بطبعه . أما التقسيم والتبويب ووضع الحدّ والتعريف، فأمر يقوى عليه كل من أتقن العلم إتقاناً نظرياً دون أن تكون له خبرة بالتطبيق وضربِ المثل ، وأين هذا من صنيع الجاحظ . بل شتان ما بين بليغٍ بالطبع ، يشرح لك أسرار البلاغة ويقفك على مواطن الجمال ، وبين عالمٍ بالكسب ، عرف البلاغة وراح يؤلف فيها ويجمع القواعد والأحكام ، ولذلك صح للدكتور ضيف أن يقول « وقد ظلّت كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة معيناً لا ينفد لمدّ الأجيال

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٥٦

التالية بكثير من قواعدهما ، كل يستمدُّ منها حسب قدرته ومهارته الذهنية . » [1] وأن يقول : « ولعلَّنا لانبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله إن الجاحظ يُعدّ ـــ غيرَ مُنازع ـــ مؤسس البلاغة العربية ، فلقد أفرد لها لأول مرة كتابهُ البيان والتبيين ، ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه . وتعمَّق وراء عصره ؛ فحكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب أو قلْ سجَّلها . وقد مضى ينثر في كتابه الحيوان تحليلات لبعض الصور البيانية في الذكر الحكيم. وليس من شك في أن كتابه المفقود الذي صنفه في نظم القرآن كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية. وهو حقاً لم يكن يُعنى بوضع ملاحظاته في شكل قوانين محدّدة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صوّرها في أمثلة متعددة بحيث تَمثَّلها من خلفوه تمثّلاً واضحاً » [2] وإلى هذا الرأي أشار الدكتور سيد نوفل حين قال : « يعد الجاحظ في رأيي مؤسس علم البلاغة العربية ،ذلك بأنه قد جمع مايتصل به من كلام سابقيه ومعاصريه ، وشرحه وأضاف إليه » [3] .

وظهر بعد ذلك كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لأبي العباس

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٥٧

(٢) المصدر السابق : ٥٧ - ٥٨

(٣) البلاغة العربية في دور نشأتها : ١٧٠

محمد بن يزيد المبرد [1] (٢١٠ — ٢٨٥ هـ). وهو على الرغم مما يدل عليه اسمه ، غير مقصور على اللغة والأدب ، وإنما تناول كثيراً من المسائل البلاغية ؛ فلقد روى أبو العباس فيه أقوالاً عامة في البلاغة، كتلك التي رواها الجاحظ من نحو قوله :« وقيل للعتَّابي : ما أقرب البلاغة؟ قال : ألاَّ يؤتى السامع من سوء إفهام القائل، ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع » [2] وتحدث فيه عن عيوب الكلام ووضوحه [3] وعن العي [4] ، وصحَّة المعنى [5] ...

كما تناول الإيجاز والمساواة والإطناب ، فتحدث عن « الاختصار المفهم والإطناب المفخَّم » [6] وعما ساوت ألفاظه معانيه . [7]

وكثيراً ما كان المبرد يشير إلى بعض الصيغ التي خرجت عما وضعت له كصيغة الاستفهام في قول عبد الله بن معاوية :

أأنت أخي مالم تكن لي حاجة فإن عرضتْ أيقنتُ أنْ لا أخا ليا

(١) انظر ترجمته في طبقات النحويين : ١٠٨ ، وتاريخ بغداد ٣: ٣٨٠ ، وبغية الوعاة : ١١٦ ، ومقدمة كتابه الكامل بقلم الدكتور زكي مبارك .

(٢) الكامل ٣ : ١٢٨٩

(٣) الكامل ١ : ٢٨

(٤) الكامل ١ : ٣١

(٥) الكامل ١ : ٣؛

(٦) الكامل ١ : ٢٧

(٧) الكامل ١ : ٢؛

فقد وقف أبو العباس عنده قائلاً إنه « تقرير وليس باستفهام ، ولكن معناه إني قد بلوتك تُظهر الإخاء ، فإذا بدت الحاجة لم أر من إخائك شيئاً . قال الله عز وجلّ : (أأَنتَ قُلتَ للنَّاسِ اتَّخِذوني وأمي إلَهَين مِنْ دُونِ الله .) إنما هو توبيخ وليس باستفهام ، وهو جل وعزّ العالم بأن عيسى لم يقله . وقد ذكرنا التقرير الواقع بلفظ الاستفهام في موضعه من الكتاب (المقتضب) . »[1]

وكان لفنون البيان ولا سيا التشبيه نصيب كبير في الكتاب ؛ فقد تناول المبرد هذا الضرب من البيان في مناسبات عديدة . بل لقد أفرد له باباً أطال فيه الحديث عنه وهو « باب في التشبيه » وفيه يقول : « هذا باب طريف ... وهو بعض مامرّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم »[2]. وأتى فيه بأمثلة كثيرة من التشبيهات ، ولم يكتف بإيرادها وإنما كان يفصّل بعضها ويناقش بعضها الآخر ... كما ذكر تشبيه التمثيل واستشهد بقول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يُثقَّبِ

كما استشهد بغيره ، ثم أورد طائفة من أعجب التشبيه — على حدّ قوله — وطائفة من التشبيه المصيب ، والتشبيه المحمود ،

(١) الكامل ١ : ١٨٣ - ١٨٤

(٢) الكامل ٢ : ٧٤٠

والتشبيه المُستحسَن، والتشبيه المُستطرَف، والتشبيه المُطّرِد على ألسنة العرب، وذكر أمثلة من حلو التشبيه وقريبه وصريح الكلام وبليغه.

وفصّل في الحديث عن بعض أركان التشبيه كما في حديثه عن وجه الشبه إذ يقول: «واعلم أن للتشبيه حداً؛ فالأشياء تتشابه من وجوه، وتتباين من وجوه؛ فإنما يُنظر إلى التشبيه من حيث وقع، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق، ولا يراد به العظم والإحراق»[1].

وقسّم المبرد التشبيه أقساماً أربعة فقال: «والعرب تشبّه على أربعة أضرب: فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام»[2] وأتى بأمثلة لكلٍّ من هذه الأنواع[3].

وتعرّض المبرد للكناية فقال: «والكلام يجري على ضروب؛ فمنه ما يكون في الأصل لنفسه، ومنه ما يكنى عنه بغيره، ومنه ما يقع مثلاً فيكون أبلغ في الوصف[4]». بل لقد تحدث عن أضرب

(١) الكامل ٢ : ٧٦٦

(٢) الكامل ٣ : ٨٥٣

(٣) انظر الكامل : ٧٤٠، ٧٤٣، ٨١٤، ٨٢٨، ٨٣٥، ٨٤٥، ٨٥٣، ٨٥٥، ٨٥٧، ٨٥٩، ٨٦٠.

(٤) الكامل ٢ : ٦٧٤

الكناية مستشهداً لكل ضرب منها بما يوضحه من شواهد قرآنية أو شعرية ؛ وهي عنده للتعمية والتغطية، أو للرغبة عن اللفظ الخسيس ، أو للتفخيم والتعظيم ومن هذا الضرب اشتقت الكنية [1] .

وهكذا كان حديث المبرد عن بعض فنون البيان ، كالتشبيه والكناية، حديثاً مفصّلاً يدلّ على إدراك القوم في عصر أبي العباس إدراكاً واضحاً مميزاً لتلك الفنون . كما كان في كتاب (الكامل) عامة ثروة بلاغية قيّمة، أفاد منها من جاء بعد أبي العباس من العلماء .

ولعلّ إدراك أهل العصر لبعض فنون البلاغة ـــ إلى جانب عوامل أخرى سنعرض لها بعد قليل ـــ كان الممهّدَ الأول لظهور أول كتاب نظري عرفناه في البلاغة، وهو كتاب (البديع) لمؤلفه عبدالله ابن المعتز، تلميذ أبي العباس المبرّد [2]

(١) الكامل ٢ : ٦٧٤ - ٦٧٨

(٢) ينبغي أن نشير هنا إلى أن للمبرد رسالة عنوانها (البلاغة) حققها الدكتور رمضان عبد التواب ونشرها سنة ١٩٦٥ . وهي عبارة عن رسالة صغيرة كتبها أبو العباس رداً على رسالة بعث بها إليه ابن الخليفة الواثق يسأله فيها أي الفنين أبلغ النثر أم الشعر ؟

الفصل الخامس

البلاغة في كتب النقد

ليست المرحلة السابقة ــ على ما رأينا من مؤلَّفاتها ــ مرحلة تأليف بلاغي ، وإنما هي في الحقيقة مرحلة تمهيد للتأليف البلاغي، وأما مرحلة التأليف البلاغي فقد بدأها ــ على ما نعلم ــ عبد الله بن المعتز حين وضع كتابه « البديع » فكان أولَ كتاب يؤلَّف في البلاغة ، ويجمع فنونها .

ثم تتالت من بعده المؤلفات ، وكان من أشهر ما ظهر منها في القرن الرابع كتب امتزجت البلاغة فيها بالنقد ، واتُّخذت كثير من الأمور البلاغية فيها مقاييس ينقد الأدب على أساسٍ منها ؛ يحكم له بالجودة إن كانت جيدة ، ويحكم عليه بالرداءة إن كانت رديئة . وذلك كما في كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) وكتاب (الموازنة بين الطائيَّيْن) للآمدي (٣٧١ هـ) وكتاب (الوساطة بين

المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني (٣٩٢ ﻫ) (وكتاب الصناعتين) للعسكري (٣٩٥ ﻫ) .

على أن ظهور هذه الكتب يقتضينا أن نقف قليلاً للنظر في بعض العوامل الهامة التي هيأت لظهورها ودفعت إليه .

كان في القرن الثالث للهجرة صراع ما زال يشتد حتى استحكم بين فئتين من أنصار الشعر : فئة محافظة ، ترى البلاغة والجمال في الشعر القديم ، بعموده وصوره وأخيلته ووضوحه وبساطته . وفئة تأثرت بثقافات وافدة كالفلسفة والمنطق .. ترى البلاغة والجمال فيما أنشأ المولّدون والمحدثون من أمثال بشار ، (١٦٧ ﻫ) وأبي نواس (١٩٨ﻫ) ومسلم (٢٠٨ ﻫ) وأبي تمام (٢٣١ ﻫ) .

واشتدت الخصومة بين أنصار الفريقين ، كما اشتدت بعد قرن من الزمان بين طائفتين أخريين ، طائفة تناصر أبا الطيب المتنبي (٣٥٤ ﻫ) وتعجب بشعره ، وطائفة تتهمه وترذّل شعره .

وكان لا بدّ لأنصار النزعة العربية التقليدية ، في الخصومة الأولى ، خصومة المحافظين والمجدّدين أو القدماء والمحدثين ، من الردّ على من زعم التجديد ، فقيّض الله لهم شاعراً ذوّاقة هو الخليفة عبد الله بن

المعتز (١٤٧ ـــ ٢٩٦ هـ) الذي تصدَّى للمحدَثين وقام يسلبهم الفضل فيما زعموه من تجديد في كتابه (البديع) .

وكان لا بدّ في الخصومة الأخرى ، خصومـــة أنصار المتنبي ومعارضيه ، من إيجاد مقاييس يرجع إليها المتخاصمون . ولابدّ من موازنة بين حجج هؤلاء المعجبين وأولئك المتهمين فكان لنا من ذلك (موازنة) الآمدي(٣٧١ هـ) و (وساطة) القاضي الجرجاني(٣٩٢هـ).

ولا شك أَن من الأمور الهامة التي يجب أن نقف عندها وننبـه عليها أنه على أثر هذه الخصومات الأدبية انفتح أمام النقاد وأهل النظر في الشعر باب القول في السرقات الشعرية ، فكان عليهم أن يحلّلوا ما جاء به الشعراء المحدثون من المعاني ، وما عبَّروا بـه من صور ، ثم يغوصوا في الشعر القديم ليوازنوا بين ما وجدوه عند المحدثين وما سبق إليه القدماء من المعاني والصور . ليميزوا المسروق من الأصيل، والمنقول من المبتكر .. فإذا نحن أمام أَبواب ممتعة تحمل عنوان السرقات وتضمها كتب النقد ، ولكن معظم ما فيهـا أمور بلاغيـة تتناول الأساليب والصور الأدبية وطرق الأَداء والتعبير .

كتاب (البديع) لعبد الله بن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ)

عاش عبد الله بن المعتز في القرن الثالث الهجري ، وأخذ العربية عن المبرد وثعلب شيخي البصرة والكوفة ، ومات قتلاً سنة (٢٩٦ هـ)[١].

وأهم ما يعنينا من صفاته ، ونحن بصدد التأريخ للعمل البلاغي، أنه عاش في عصر الصراع بين أنصار القديم وأنصار الحديث . وأنه كان شاعراً ذوّاقة يدرك جمال الشعر ويحسه،وأنه خاض معركة الخصومة بين القدماء والمحدثين ، وأدلى فيها برأيه ، وسلاحُه فيها ثقافة عربية أصيلة،واطّلاع جيد على الأدب، نثره وشعره.

وضع ابن المعتز كتاب (البديع) فكان أول كتاب استقرّت فيه صياغة نظرية لبعض الفنون البلاغية ، ذلك أن الذين سبقوا ابنَ المعتز كانوا يتعرضون للموضوعات البلاغية وهم بصدد أبحاث قرآنية أو لغوية ، أما هو فقد عمد إلى التأليف البلاغي عن قصد ، وجعل من البلاغة غاية تأليفه .

---

(١) انظر تفصيل ترجمته في الأغاني ١٠ : ٢٧٤ وتاريخ بغداد ١٠ : ٩٥ وشذرات الذهب ٢ : ٢٢١ .

يصرّح ابن المعتز بسبقه إلى التأليف البلاغي فيقول : « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أَحد »[1] . ولم يكن البديع عنده يعني ما يعنيه اليوم من فنون بديعية ، وإنما هو عنده فنون بلاغية متنوعة كما سنرى .

ولا يعني سبقه إلى التأليف في (البديع) أَنه أَول من أَطلق هذا اللفظ أو استعمل هذه الكلمة ، بل لقد استعملها غيره ممن جاء قبله كالجاحظ مثلاً ، ولكن ابن المعتز كان أَول من أَفرد للبديع كتاباً وخصّه بالتأليف ، وكان أَول من حاول جمع فنون البديع في كتاب واحد .

ويعلن ابن المعتز بعد ذلك أَنه وضع كتابَه ، وغايتُه أَن يعيد الفضل إلى أصحابه ، ويدحض باطل المجدّدين وأنصارهم ، ويكشف زيف ما يدّعونه من اختراع البديع . وكيف يدّعون اختراعه وهو قديم ، ومنه نماذج كثيرة معروفة في كتاب الله تعالى وحديث نبيّه ﷺ وأَشعار العرب ؟ على أَنه لا مراء في أنهم إذا لم يسبقوا إليه فقد سبقوا إلى الإكثار منه ، وفي أنهم إذا لم يبتكروه فقد تفرّعوا فيه وزادوا عليه .. يقول ابن المعتز : « قد قدّمنا في

(١) البديع : ١

أبواب كتابنا هذا بعضَ ماوجدناه في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدّمين من الكلام الذي سمّاه المحدَثون (البديـــع) ليُعلَمَ أَن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم [(1)] وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم فعُرف في زمانهم حتى سُمّي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه . ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغف به حتى غلب عليه ، وتفرّع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف » [(2)] .

وهكذا يقضي ابن المعتز على آمال المدّعين والشعوبيين حتى لا يفتخر أحد منهم بابتكار فن عزبي جديد ، أو يفاخر أحدهم العربَ باختراع فنّ في كلامهم لم يكونوا هم السبّاقين إليه . إن البديع فنّ قديم ، وليس لأحد من المحدَثين فيه أدنى فضل . يقول ابن المعتز بصراحة ووضوح : « وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أَن المحدثين لم يسبقوا المتقدّمين إلى شيء من أبواب البديع » [(3)] .

---

(١) أي : قلّدهم .

(٢) البديع : ١

(٣) البديع : ٣

والبديع عند ابن المعتز يشمل خمسة فنون هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وردّ أعجاز الكلام على ماتقدّمها ، والمذهب الكلاميّ .

على أن ابن المعتز لم يقصر كتابه على هذه الفنون الخمسة ، وإنما ذكر بعدها ثلاثة عشر فناً قال إنها من محاسن الكلام ، وترك لمن يشاء أن يدخلها في فنون البديع ، وقد عدّ منها : الالتفات ، والاعتراض ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، وحسن التشبيه ، والتعريض ، والكناية ...

وفصّل ابن المعتز في الحديث عن الفنون البديعية ومحاسن الكلام في كتابه ، وأكثر من ضرب الأمثلة عليها. ولم يأخذه الغرور في كل ما صنع ، وإنما وقف وقفة العالم ليعلن أنه لم يأت بكل شيء ، وأن لغيره أن يزيد عليه ، ووقف وقفة العالم أيضاً ليذكّر أنه رائد في التأليف البلاغي ، وأن سبقه دعاه إلى اختيار مصطلحات لفنون العلم الذي يؤلف فيه ، فمن لم تعجبه اسماؤه ومصطلحاته فليتركها إلى خير منها إن وجد .

وجدير بنا أن نشير إلى أن عناية ابن المعتز بالبديع لم تكن تعني

عنده الدعوة إلى الإكثار منه ، إنه غاص في كنوز الأدب العربي القديم ليستخلص من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي والنثر والشعر نماذجَ تثبت الأمر الذي أراده ، وهو أن هذا الذي يطلق المحدَثون عليه اسم البديع إنما هو فنّ قديم معروف . وأما موقفه منه ومن الدعوة إلى الأخذ به أو الإكثار منه فيظهر لنا في مثل قوله عن القدماء الذين اطلع على أدبهم : « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قُرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يُستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل »[1] .

ويظهر لنا موقفه من البديع أيضاً في مثل قوله عن أبي تمام إنه « شُغف به حتى غلب عليه وتفرّع فيه وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف » .

وكان لابن المعتز من بعد ذلك أثر واضح ورائع في ميدان العمل البلاغي ، وذلك بما أرسى من أساس ، وجمع من فنون ، واقترح من

---

(١) البديع : ١

أسماء ومصطلحات ، مما مهّد الطريق لمن جاء بعده . ولا عليه أن غيّر الذين جاؤوا من بعده بعض مصطلحاته وتسمياته — كما كان هو يتوقع — ولا عليه أن تتشعّب فروع العلم الذي كشف هو عن أكمامه، حتى تستقر في أقسامها الثلاثة من البيان والبديع والمعاني ، بعد أن كانت عنده قسمين : قسم البديع ، وقسم محاسن الكلام .

وكان لابن المعتز أيضاً فضل واضح في ترسيخ النظرة السليمة إلى البلاغة، تلك التي تنظر إلى العناصر البلاغية على أنها مقاييس صالحة للنقد الأدبي . فلقد رأيناه في (بديعه) يتخذ من العناصر البلاغية مقاييس يقيس بها الأسلوب الأدبي .

إنه أول من ألّف في البديع بمفهومه الجديد ، وبذلك يدخله عنصراً أساسياً من عناصر نقد الأسلوب الأدبي ، وعاملاً من عوامل المفاضلة بين الأدباء . لقد كان القدماء — وهم لا يدرون ما البديع كما يقول — ينقدون على أساس من اللغة والنحو والمعنى ؛ فهذه لفظة حوشيّة ، وتلك كلمة مبتذَلة ، وهذه مرفوعة وحقها النصب ، وهذا معنى ساقط رديء ، وذلك معنى جيد بالغ.. ، أما ابن المعتز فقد أرسى للنقد جانباً آخر ، جانباً يقوم على تمييز الأسلوب الأدبي بما فيه من

فنون البديع ، وفنون البديع عنده أولها الاستعارة ، وعلى هذا فقد أدخل ابن المعتز « الصورة » أو « الشكل » بين عناصر النقد الأدبي بعد أن كان معظم النقد من قبله متجهاً إلى الكلمة وما يصيبها من خطأ أو لحن ، وإلى المعنى وما يطرأ عليه من انحراف أو رداءة ...

وجملة القول إن عمل ابن المعتز في ميدان البلاغة والنقد عمل شاعر ذواقة ، وعربي أصيل بنزعته وثقافته . ولا شك أن عروبة ابن المعتز تتضح أكثر فأكثر إذا وازنا بين عمله وعمل قدامة بن جعفر صاحب كتاب (نقد الشعر) والمتوفى بعد ابن المعتز بأقل من نصف قرن .

نقد الشعر لقدامة بن جعفر (1)

عاصر قدامة بن جعفر الخليفة العباسي المكتفي بالله (ولد المكتفي سنة ٢٦٣ هـ وبويع سنة ٢٨٩ ومات سنة ٢٩٥ هـ) وأسلم على يديه . وأخذ العربية عن المبرد وثعلب وغيرهما ، وبرع بالكتابة والمنطق والحساب والبلاغة ونقد الشعر .. ووضع في هذه العلوم كتباً تشهد بعلمه وفضله . ويبدو أن هذه الجوانب الثقافية التي عني بها قدامة وتزوّد بها ، هي التي أهّلته للعمل الديواني الذي يُشترط فيمن يتصدّى له أن يكون على علم بالكتابة والحساب ، وأن يكون جيّد الاطلاع على الأدب ، كثيرَ الحفظ للغة والشعر .

وغير بعيد أن يكون قدامة على علم باللغة اليونانية ، ففي كتبه ما يدل على ذلك أو على أنه مطلع على ما ترجم عنها .

---

(١) انظر ترجمته في الفهرست : ١٨٨ ومعجم الادباء ٦ : ٢٠٣ والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٩٧ .

ولن نتعرض لكتب قدامة ،وإنما نكتفي منها بما يتصل بموضوعنا وهو كتاب « نقد الشعر » .

أول ما يطالعنا في كتاب قدامة منهجه الذي يعتمد المنطق،ويقوم على الحدود والتعريفات ، ويولي عناية خاصة للتقسيم والتحليل؛فللشعر حدّه ،وهو عنده : قول ، موزون ، مقفّى ، يدلّ على معنى . ولكلٍ من عناصر هذا الحد القاسي صفاته ، ولكل عنصر من عناصره ، وكل صفة من صفاته،موضع في الكتاب مرسوم له منذ البداية لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فأنت متى عرفت منهج قدامة في كتابه عرفت موضع كل موضوع فيه ، لأنه يضعه حيث يفرض المنطق أن يضعه .

ويتألف الكتاب من ثلاثة أقسام :

يتناول قدامة في القسم الأول منها تعريف الشعر وتفصيل عناصره.

ويتناول في القسم الثاني شروط الجودة،وهي التي ينبغي أن تتوافر في كل من عناصر الشعر ليكون ــ بالضرورة! وإذا توافرت ــ جيّداً .

ويبحث في القسم الثالث نعوت الرداءة،وهي التي يكون الشعر بسببها ــ إذا وجدت ــ رديئاً .

ولا يشك الباحث في كتاب قدامة أن صاحبه كان مطلعاً على آراء ارسطو ومتأثراً بها إلى حد بعيد[1] .

وواضح أن قدامة كان ينفس على ابن المعتز سبقه إلى الحديث عن الشعر وجودته ، فهو يزعم أنه السبّاق إلى الحديث في موضوع جودة الشعر ورداءته ، وأنه لذلك مضطر إلى استعمال مصطلحات لم يُسبق إليها ..

والذي يعنينا من كتاب قدامة، ونحن بصدد التأريخ للعمل البلاغي، أن قدامة تناول كثيراً من المباحث البلاغية، ووقف عندها يعرّف ويحلّل ويمثّل ، وهو لم يتناولها على أنها أبحاث في البلاغة ، وإنما تناولها على أنها شروط تصل بالأسلوب ـ إذا توافرت فيه ـ إلى الجودة والجمال. وعلى أساس من هذا الفهم تناول أبحاثاً أصبحت فيما بعد فنوناً بلاغية توزّعتها علوم المعاني والبيان والبديع ، وذلك كالتتميم ، والإيغال ،

---

(١) انظر (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) للدكتور ابراهيم سلامة . و(النقد المنهجي عند العرب) للدكتور محمد مندور ٦٢ - ٦٨ و(البلاغة تطور وتاريخ) للدكتور شوقي ضيف : ٨٠ .

والمساواة، والتشبيه ، والاستعارة،والتمثيل، والإرداف،والتصريع، والسجع ، والجناس ...

وقد بلغت فنون البديع التي ذكرها قدامة عشرين فنًّا ، اتفق مع ابن المعتز في سبعة منها .

كتب أخرى في النقد

عيار الشعر ، الموازنة ، الوساطة

وظهرت كتب نقدية أخرى تناول أصحابها كثيراً من الأمور البلاغية ، واعتمدوا في نقدهم وعرض آرائهم فيها على كثير من الفنون البلاغية ؛ ككتاب « عيار الشعر » لابن طباطبا (٣٢٢ هـ) وكتاب « الموازنة بين الطائيين » للآمدي (٣٧١هـ) وكتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي الجرجاني (٣٩٢ هـ) .

واشتهرت هذه الكتب في تاريخ النقد الأدبي ، وهي كتب يكثر الحديث فيها عن التشبيه والاستعارة والجناس والطباق . . . وعما يُستحسن من هذه الفنون وما يُستقبح .. كما يكثر الحديث فيها عن الصور البيانية وما بينها من تشابه أو تفاوت على اختلاف الشعراء. بل لعلّنا لا نغلو إذا قلنا إن النقد الأدبي في هذه الكتب قد اختلط بالبلاغة، وإن الفنون البلاغية قد اختلطت في هذه الكتب بالنقد حتى بات من العسير على الباحث أن يميز فيها نقداً من بلاغة ، أو بلاغة من نقد،

وذلك في اعتقادنا أمر محمود،وكان ينبغي أن يستمر، فلا يقوم نقد بلا بلاغة ؛ لأنها عنصر من عناصره ، ولا تقوم بلاغة بلا أدب ؛ لأنها به تحيا وتظهر ، وبمعارضه تحلو وتشرق،وما أظلمت البلاغة عندنا وجمدت إلا يوم انزوت عن النقد والأدب جميعاً لتصبح حدوداً جامدة ، وتعريفات خالية من الروح .

إن البلاغة في اعتقادنا يجب أن تعود كما كانت ، حيّة مشرقة ، وهي لا تكون كذلك إلا إذا درسناها في مواضعها من كلام الأدباء، وتذوّقناها ندية في نصوصهم .ولسنا نشك أبداً في أن الأديب الموهوب الذي يصوغ فكرته في صورة بيانية حلوة ، وأن الانسان المتذوّق الذي تروق له تلك الصورة فيدرك حلاوتها ... أنهما كليهما أبلغ ألف مرة ممن يحفظ كلّ مايتصل بعلم البيان من حدود وتعريفات . ولعلّنا نخلص من ذلك إلى مانريد من إقناع طلابنا بالعودة إلى تلك الكتب النقدية البلاغية ليطالعوا فيها صفحة مشرقة من صفحات النقد الأدبي كان للبلاغة وتذوقها فيها نصيب كبير .

ففي (عيار الشعر) يتحدث ابن طباطبا[1] (٣٢٢ هـ) عن صنعة

---

(١) اسمه محمد بن أحمد ، وترجمته في معجم الأدباء ٦ : ٢٨٤ ، ومعاهد التنصيص ٢ : ١٢٩

الشعر ، وقياس بلاغته ، وكيف يبلغ الشاعر منه مايريد . ولعل من أبرز ما تناوله في الصنعة الشعرية ومعيارها موضوع التشبيه ، فهو عنده موضوع مفصَّل وبحث مسهب ، يعرض فيه لأنواع التشبيهات المختلفة وما يتصل بها .

وفي كتاب (الموازنة بين الطائيَّيْن) يلجأ الآمدي [1] (٣٧٠ هـ) إلى كثير من الفنون البلاغية التي استعملها كل من الشاعرين ، فيستعين بها على الموازنة بينهما، إنه يفاضل بين استعارات وتشبيهات ، ويوازن بين أنواع بديعية وقعت في شعر الشاعر ليصل من وراء ذلك إلى تفضيل أحد الشاعرين وإيثار مذهبه على الآخر .

وأما القاضي الجرجاني [2] (٣٩٢ هـ) فقد قدَّم لـ (الوساطة بين المتنبي وخصومه) بحديث طويل فيه الكثير من الفنون البديعية ـــ وفنون البديع في عصره كانت تشتمل على كثير مما خرج فيما بعد عن نطاق البديع ـــ كالاستعارة والتشبيه والتمثيل .. ، وكذلك كان حديث الجرجاني عن شعر أبي الطيب حديثاً امتزج النقد فيه بالبلاغة ، أو كانت البلاغة فيه عنصراً أساسياً من عناصر النقد .

---

(١) هو الحسن بن بشر ، انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣ : ٥٤ ، وإنباه الرواة ١ : ٢٨٥

(٢) هو علي بن عبد العزيز ، وترجمته في معجم الأدباء ٥ : ٢٤٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ ، وشذرات الذهب ٣ : ٥٦

وهكذا ، فعلى الرغم مما قلناه في (عيار الشعر) و (الموازنة) و (الوساطة) لايمكن أن نعدّ هذه الكتب كتباً في البلاغة بالمعنى الذي آلت إليه البلاغة فيما بعد من أمر استقلالها وقيامها علماً ذا كيان خاص بين علوم العربية . لذلك فنحن نتجاوزها للوقوف عند كتب أُخرى تلتها واتخذت من فنون الكلام ، شعره ونثره ، موضوعاً لها ، فصّلت فيه وذكرت ما يحتاجه الفن أو الصناعة من عوامل الحسن وشروط الجودة، ككتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ) وكتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) .

كتاب الصناعتين، والعمدة، وسر الفصاحة

وضع أبو هلال[1] الحسن بن عبد الله العسكري (٣٩٥ هـ) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، وقدّم له بمقدمة ذكر فيها السبب الذي دفعه إلى وضع كتاب في علم البلاغة ومعرفة الفصاحة فقال : « إن أحق العلوم بالتعلّم وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علمُ البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ... » ثم قال : « ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة » وخلاصتها عنده أن يجوّد صاحب العربية لغته ، وأن يميز بين الجيدّ والرديء من الكلام . وضرب كثيراً من الأمثلة التي تشهد بتخليط أصحابها وفساد أحكامهم ، وأشاد بكتاب البيان والتبيين للجاحظ ؛ ولكنه أخذ عليه ضياع البلاغة في تضاعيفه ، وبعثرة مباحثها في استطراداته ، وانتهى من ذلك إلى وجوب وضع كتاب في هذا العلم يجمع كلّ ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه . قال أبو هلال : « فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام ، فيما راموه من اختيار الكلام ،

(١) ترجمته في معجم الأدباء ٣ : ١٣٥ ، وبغية الوعاة : ٢٢١ ، وخزانة الأدب ١ : ١١٢

ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت الحاجة إليه ماسّة ، والكتب المصنّفة فيه قليلة . وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. وهو لعمري كثير الفوائد ، جمّ المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة، وما حواه من اسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانه عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة، مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالّة بين الأمثله ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يُحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه »[1] .

ويتألف (كتاب الصناعتين) من عشرة أبواب تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلاً، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحاً ، إلى تمييز جيّد الكلام من رديئه ، ومعرفة صنعته ، وحُسن الأخذ وقبحه ، إلى ذكر الإيجاز والإطناب ، والتشبيه ؛

---

(١) كتاب الصناعتين : ٥

حده ، ومايُستحسن منه وما يُستقبح ، وذكر السجع والازدواج ، والقول في البديع ووجوهه وحصر أبوابه وفنونه ...

وقد بلغت فنون البديع عند أبي هلال خمسة وثلاثين فناً استغرقت من كتابه خمسة وثلاثين فصلاً ، وهو لاينكر فيها فضل من سبقه إلى البحث في بعضها كابن المعتز وقدامة وإن كان يشير إلى أنه زاد عليهم في ذكر ستة فنون منها .

ويجب في ختام حديثنا عن العسكري وكتابه أن ننبه على أمر هام نحمده للعسكري، وهو أنه لما كانت أساليب علماء المنطق والكلام قد طغت على أفكار القوم وأساليبهم في القرن الرابع ، فقد تنبه أبو هلال إلى مخالفة هذه الأساليب بطبيعتها لأساليب البلاغة العربية الأصيلة ، فوقف في آخر الفصل الأول من الباب الأول ليعلن بصراحة أنه « ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتّاب . »[1] وصدق أبو هلال فقد كانت البلاغة عنده قائمة على الإكثار من الأمثلة، وعلى تذوقها والتحسس بجمالها .

---

(١) كتاب الصناعتين : ٨ .

وأما كتاب (العمدة في صناعة الشعر ونقـــده) للحسن بن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ) فهو كما يتضح من عنوانه كتـاب يعنى بفن الشعر وما يتصل به ، وبنقده . والنقد ـــ كما رأينا في كتب هذه المرحلة ـــ ممتزج بالبلاغة ، معتمد في كثير من أحكامه عليها ، ولذلك جاء كتاب العمدة كتاباً مشحوناً بالحديث عن البلاغة وفنونها .

يتألف كتاب (العمـدة) من جزأين يشتملان على نيف ومائة باب . ويعالج ابن رشيق فيه كثيراً من الموضوعات الأدبية والقضايا النقدية، كبيان فضل الشعر ، والردّ على من يكرهه ، وشرح موقف الاسلام منه ، وبيان منافعه ومضارّه . ويتعرّض فيـه للقدماء والمحدَثين من الشعراء ، وللمكثرين والمقلّين منهم ، ويتحدث عن الشعر والشعراء وطبقاتهم ....

ويُفرد ابن رشيق باباً لحد الشعر وبنيته ، وباباً لأوزانه ، وبابـاً لقوافيه . . . ويقف عند البلاغة فيستعرض كل ما كان معروفـاً من فنونها حتى عصره، فيجعل لكل من تلك الفنون باباً خاصاً به، فيكون عنده ـ على سبيل المثـال لا الحصر ـــ باب البلاغة، وباب الإيجـاز ، وباب البيان ، وباب المخترع والبديـع ، وهو يعترف في هذا الباب

بفضل ابن المعتز وسبقه إلى التأليف في البديع ، ويكون عنده باب المجاز ، وباب الاستعارة ، وباب التمثيل ، وباب التشبيه ، وباب الإشارة ، وباب التجنيس وهو آخر أبواب الجزء الأول — وباب الترديد ، وباب المطابقة ، وباب المقابلة ، وباب التسهيم ، وباب الالتفات، وباب المبالغة . . . وغير ذلك من أبواب الفنون البلاغية والقضايا النقدية .

ويتصف كتاب العمدة عامة بما تتصف به هذه الطائفة من الكتب الأدبية التي امتزجت البلاغة فيها بالنقد حتى لم يعد الكتاب منها لأحد الفنَّين أكثر مما هو للفن الآخر .

على أن كتاب العمدة ، بما امتاز به من استيعاب لفنون البلاغة وأقوال المتقدمين فيها ، يصلح أن يكون حلقة في تاريخ التأليف البلاغي، أو مرآة لما وصل إليه علم البلاغة حتى عصر مؤلفه.

وكذلك نسلك في عداد هذه الطائفة من الكتب النقدية البلاغية كتاب (سرّ الفصاحة) لأبي محمد عبد الله بن محمد . . . بن سنان الخفاجي [1] ، وهو شاعر أديب ، لقي أبا العلاء المعرّي وأخذ عنه ، وكان والياً في ناحية من نواحي حلب ، ومات مسموماً سنة ٤٦٦ هـ .

---

(١) انظر ترجمته مفصلة في النجوم الزاهرة ٥ : ٩٦ . وفوات الوفيات ١ : ٢٣٣ وفي مقدمة كتاب سر الفصاحة .

يذكر ابن سنان - كغيره من علماء البلاغة - أن معرفة الفصاحة واجبة لمعرفة بلاغة القرآن،ولمعرفة نظم الكلام ونقده. ولكنه يفرّق بين لفظي الفصاحة والبلاغة ؛ فالفصاحة عنده خاصة بالألفاظ ، وأما البلاغة فهي للألفاظ مشتملةً على المعاني، ولا شك أن هذا التفريق بين معنى اللفظين كان ذا أثر في دراسات البلاغيين الذين جاؤوا بعد ابن سنان ، وأخذ كثير منهم في ذلك برأيه .

وتعرّض ابن سنان - لأول مرة في الدراسات البلاغية - لموضوع الأصوات ، ذلك أن طبيعة بحثه في الفصاحة ، وهي عنده كما رأينا وصف للفظ مجرداً عن المعنى ، دعته إلى التعمق في دراسة اللفظ من حيث هو أصوات مركّبة ، فبحث في أحكام الأصوات ومخارجها وصفاتها بحثاً جيداً ، اعتمد فيه على من تناوله من قبله من علماء اللغة والتجويد.

وتعرّض ابن سنان في كتابه لكثير من قضايا النقد وآراء النقاد في الشعر والشعراء ، وأقوالهم في القدماء والمحدثين ، كما عرض في أثناء ذلك كثيراً من الفنون البلاغيـة، وناقش أقوال من تقدمه فيها كقدامة والآمدي والجرجاني ، ووازن بين أقوالهم ،وفاضل بين مصطلحاتهم، وكان في كل ذلك عالماً متميز الرأي واضح الشخصية .

الإمام الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

بلغ التأليف البلاغي غاية بعيدة من الإحكام والنضج في القرن الهجري الخامس ، وذلك على يد الإمام الجرجاني ، صاحب كتابي (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) .

والجرجاني[1] هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ، برع في علوم العربية ، حتى كانت له الإمامة فيها في عصره . ومات سنة ٤٧١هـ . وألف في النحو والإعجاز والبلاغة كتباً تشهد له بالفكر النافذ والعلم الواسع والذوق المرهف ، كما تشهد له بطول الباع وسداد الرأي في النحو والبلاغة والنقد .

يذكر الجرجاني في مقدمة كتابه (دلائل الإعجاز) منزلة العلم بين الفضائل فيقول إنه أحقها بالتقديم ، وأسبقها إلى استيجاب التعظيم ، لأنه السبيل إلى الشرف ، والدليل على الخير[2] ... ثم يخص علم البيان

(١) ترجمته مفصلة في إنباه الرواة ٢ : ١٨٨ ، وطبقات السبكي ٣ : ٢٤٢ ، وبغية الوعاة : ٣١٠

(٢) انظر مقدمة الدلائل ص : ٨

من بين فروع العلم فيقول : « ثم إنك لاترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً، وأحلى جنى، وأعذب ورداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً من علم البيان[1] .. » ومع ذلك فهو العلم الذي أصيب بالضيم : ومني بالحيف ، وغلط في معناه الناس . . ويبين الجرجاني وجه الغلط في فهم معنى البلاغة والفصاحة ، وأن الأمر ليس من جهة النقص في اللغة أو الصفات الصوتية للمتكلم . وإنما هناك دقائق وأسرار لا بد في معرفتها من الروية والفكر ، وبهذه الدقائق يتفاضل الكلام ، وبها يدرك إعجاز القرآن .

كما يبين الجرجاني في أوائل كتابه غلط الناس في فهم النحو وتصغير شأنه مع أن « الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وإنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه »[2] ويأخذ الجرجاني بأيدينا حتى يقفنا على سر الفصاحة في رأيه فإذا هو عنده « النظم » أو الأسلوب، أو ارتباط الكلام بعضه ببعض ؛

---

(١) دلائل الإعجاز : ٩

(٢) دلائل الإعجار : ٢٢

« فالألفاظ لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة »[1] « وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة ، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها . وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة ، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة ، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها ، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها.»[2] .

وينبه الجرجاني على أن المقصود من النظم ليس اتصال الألفاظ أو ترابطها وتتاليها من حيث هي حروف أو أصوات ، وإنما هو تتالي معانيها واتساقها فيما بينها،مشيراً إلى الفرق بين قولنا « حروف منظومة» و « كلم منظومة » وإلى أنه لا يريد بالنظم نظم الحروف ، لأن هذا يعني تواليها بالنطق فقط ... وليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل[3] . « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً

(١) دلائل الإعجاز : ٣١

(٢) دلائل الإعجاز : ٣٠

(٣) دلائل الإعجاز : ٣٣

لا يعترضه الشك أنْ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسببٍ من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل، ولا يخفى على أحد من الناس. وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبنـــاء، وجعلِ الواحدة منها بسببٍ من صاحبتها ما معناه؟ وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمـين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه، أو تجيء باسم بعـد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو تتوخى في كلامٍ هو لإثبات معنىً أن يصير نفياً أو استفهاماً أو تمنياً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك... وإذا كان لا يكون في الكلم نظم ولا ترتيب إلا بأن يُصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء، ومما لا يتصوّر أن يكون فيه ومن صفته، بان بذلك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرّد أصواتاً وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن

يجعل لها أمكنة ومنازل ، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك[1]».

ويمضي الجرجاني هكذا بأسلوب عقليّ منطقيّ ليثبت ما يريد من أن إعجاز القرآن ليس في ألفاظه المفردة ، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة ، وإنما البلاغة في الأسلوب أو الصياغة أو « النظم » ، وما النظم عند الجرجاني إلا ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي ؛ فالمعنى النحوي للكلمة هو الذي يفرض تقديمها أو تأخيرها ، تعريفها أو تنكيرها ، ذكرها أو حذفها ...

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها ... هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً ، وخطؤه إن كان خطأ ، إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له »[2].

ويشرح الجرجاني مزايا النظم مبيّناً أنها ترجع إلى المعاني

(١) دلائل الإعجاز : ٣٥ - ٣٦

(٢) دلائل الإعجاز : ٤٨ - ٤٩

والأغراض، لأن اتساق الألفاظ وترتيبها إنما يكون بحسب ترتب معانيها في النفس وأوضاعها في العقل.

وبهذا الأسلوب المفصَّل القائم على الشاهد وضرب المثل من القرآن الكريم أو الشعر يمضي الجرجاني في الشرح والتفصيل، فإذا هو يشرح وجوهاً من البلاغة وفنوناً من الفصاحة لم يُسبق إليها، بل إنه استطاع من خلال ذلك أن يرسي قواعد علم المعاني على أساس من المعرفة والعقل والذوق، وفي ضوء المثل والدليل والبرهان. إنه يعقد فصولاً للتقديم والتأخير ومواضعها، وللاستفهام، والنفي، والحذف ومواضعه، والتعريف والتنكير، والقصر، والفصل والوصل.

ويتحدث الجرجاني عن الصور البيانية في أثناء حديثه عن الأسلوب لأنها جزء من الألفاظ أو التركيب أو الصياغة، لذلك فكثيراً ما نراه في (دلائل الاعجاز) يتعرّض لبعض المباحث البيانية — ولم تكن البلاغة في عصره قد عرفت هذا التقسيم الثلاثي الذي عرفته فيما بعد على يد السكاكي — فيتحدث عن الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز حديثاً فيه الكثير من الدقّة والعمق، وهو في كل ذلك لا ينسى أن ينبه دائماً على أن البيان في هذه التراكيب، أي البلاغة في هذه الصور، إنما يعود إلى المعاني النحوية التي اقتضت وضعها هذا الوضع.

ولعل أبرز ما يتصف بـــه بحث الجرجاني في البلاغة أنه بحث يجمع بين سعة العلم، وبُعد النظر، وسداد الرأي، ورهافة الذوق. وهي صفات تظهر في حسن استثار الجرجاني لعلم النحو، وبراعة تطبيقه لقوانينه في نظم الكلام تطبيقاً يشهد بالذكاء، كما تظهر في تحليله لأمثلة من القرآن الكريم والشعر، تحليلاً يجتمع فيه العقل والذوق، ويستعين فيه الحسّ بالعلم، بل إن الجرجاني يرى أن الذوق شرط لإدراك ما يريد من جوانب البلاغة، وأن من لم يُؤت الذوق فلن يكشف عن بصره حجاب التفاضل بين جيّد الكلام ورديئه، ولن يدرك أسرار الجمال في نظم الكلام.

ويتابع الإمام الجرجاني عمله البلاغي الرائع في كتابه الثاني (أسرار البلاغة) فيبيّن في أوله فضل الكلام ومزيّة البيان، ثم ينطلق ليؤكّد ما سبق أن سمعناه منه في (دلائل الإعجاز) من أن ما يوصف به الكلام ليس في حقيقته وصفاً للألفاظ المفردة، «كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب،»[1] ويمضي في شرح هذه الفكرة من جديد حتى ينتهي إلى القول: «فإذا رأيت البصير بجواهر

(١) أسرار البلاغة: ٣

الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً ، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق ،وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخَلوب رائع، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى ظاهر الوضع اللغوي ، بل أمر يقع من المرء في فؤاده ، وفضل يقتدحه العقل من زناده . »[1]

ويذهب الجرجاني إلى أبعد من ذلك فيقرر أن هناك ما قد يُتوهم أن الحسن أو القبح فيه لا يتعدّى اللفظ،والحقيقةُ على خلاف ذلك ، ويمثّل ببعض الفنون البديعية التي سميت فيما بعد بالمحسِّنات اللفظية ، كالسجع والجناس ، فيحلّل سرّ الجمال فيهما ، ويربطه بالمعنى الذي استدعاهما ، ويقول قولاً ليت البلاغيين تمسّكوا به من بعده ، إذاً لكان أدبنا في عصور الدول المتتابعة في منجى من كثير مما شابه من زخارف لفظية فارغة ، ومن صنعة لم تكن ليستدعيها المعنى ، وإنما كانت على العكس متكلّفة مفروضةعلى المعنى فرضاً أساء في أكثر الأحيان إليه . يقول الجرجاني : « وها هنا أقسام قد يُتوهم في بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة ، أن الحُسْن والقبح فيها لا يتعدّى اللفظ والجرس ، إلى ما يناجي العقل فيه النفس ، ولها

(١) أسرار البلاغة : ٤

إذا حُقّق النظر مرجع إلى ذلك، ومُنصَرف فيما هنالك، منها التجنيس والحشو . أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً»[1]ويقول : « فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيسَ من الفضيلة أمر لم يتمّ إلا بنُصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسَن ، ولما وُجد فيه معيب مُستهجَن »[2] . ثم يقول في الحثّ على ترك الاستكثار منه وبيان العيب في تتبّعه وتقصّيه : « ولذلك ذُمّ الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعاني والمُصرّفة في حكمها ، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنّة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب الغيب والتعرّض للشين ، ولهذه الحالة كان كلام المتقدّمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ، ولزموا سجيّة الطبع ، أمكنَ في العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذوي التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف عن الأغراض ،

(١) أسرار البلاغة : ٥ — ٦

(٢) أسرار البلاغة : ٨

وأنصر للجهة التي تنحو نحو العقل، وأبعد من التعمّد الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق، والرضى بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من النقش والوشم، وأثقل صاحبها بالحلي والوشي، قياس الحلي على السيف الددان [1]، والتوسّع في الدعوى بغير برهان، كما قال:

إذا لم تشاهد غير حُسن شياتها وأعضائها فالحُسن عنك مُغيَّب

وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبَه فَرْطُ شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ويقول ليُبين، ويُخيَّل إليه أنه اذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلاضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء. وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده، كمن ثقَّل على العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها» [2]

ونحن مع الجرجاني في أن الأدب العربي ما أصابه مكروه في نفسه كما أصابه من كثرة التكلّف وطلب الزخرفة اللفظية مما أفسد المعنى وطمس عليه.. وكأن الجرجاني كان يتنبأ بما ستُنزله هذه الصنعة المتكلّفة بالأدب في العصور اللاحقة، عصور الانحطاط، أو الدول

---

(١) الددان من السيوف كالكهام وزناً ومعنىً وهو الكليل الذي لا يقطع.
(٢) اسرار البلاغة: ٨ - ٩

المتابعة أو عصور الصنعة والتصنع أو التصنيع ، أو عصور تكلف البديع . وليت أدباء تلك العصور وعوا صيحة الجرجاني وأخذوا برأيه الذي يقول : « ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع في نفسك أنه لا بدّ من أن تجنّس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم »[1] .

وإذا كنا قد أطلنا فيما نقلناه من آراء الإمام الجرجاني في هذا الموضوع فللتنبيه على أن الأذكياء من علماء البلاغة ، والمتذوقين لجمال فنون القول ، ليسوا مسؤولين عما آلت إليه البلاغة فيما بعد ، بل لننبه على أن البلاغة نفسها ليست مسؤولة عن هذا الانحراف الذي أصاب مفهومها عند قوم متأخرين ، وأنها لم تكن في حقيقتها إلا رديفاً للغة يساعدها على التعبير عما في النفس من المعاني بأحسن صورة وأجمل أداء .. وأن الصورة أو الأداء اللفظي ليس غاية في نفسه ، فإذا وجهنا

(١) أسرار البلاغة : ١٣ - ١٤

إليه العناية فلنلبس معانينا أحلى ما لدينا من ألفاظ ، ونظهرها في أجمل ما نستطيع من الصور . ولا يعني هذا أبداً أن نقلّل من شأن اللغة أو نحطّ من قيمة الأداة التعبيرية ، ولكنه يعني عدم المغالاة في أمرها إلى الحدّ الذي يدخل الضيم معه على المعاني والأفكار .

ولشدّ ما يعجبني بهذا الصدد قول الآمدي « إن حُسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسناً ورونقاً حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد » . وكذلك كان الجرجاني يعطي لكل من المعنى واللفظ ما يستحقه ، فبعد أن تحدث بإسهاب عن الجناس والسجع منبهاً على أن الأساس في كل ذلك إنما هو « أمر المعاني ، كيف تختلف وتتفق ، ومن أين تجتمع وتفترق »[1] عاد ليبيّن أن هذه المعاني لا بد لها من معارض بها تظهر ، وأن لهذه المعارض أو الصور اللفظية قيمة لا تنكر ، فقد تزيد في قيمة المعاني وترفع من شأنها[2] ، ولذلك فلا بد من شرح منزلة هذه الصور بالنسبة إلى المعاني ، وهو يرى أن « أول ذلك وأولاه ، وأحقّه بأن يستوفيه النظر ويتقصّاه القول على التشبيه والتمثيل والاستعارة ..»[3] .

(١) أسرار البلاغة : ٢٥

(٢) أسرار البلاغة : ٢٦.

ويعقد عبد القاهر بعد ذلك فصولاً كثيرة يتناول فيها الحديث عن التشبيه والاستعارة والتمثيل ، فيحلّل جمال التشبيهات المختلفة وما يتصل من ذلك بطرفي التشبيه أو وجه الشبه أو طرافة الصورة ، كما يحلّل جمال الاستعارة ، ويبيّن الفرق بينها وبين التمثيل ... وهو في كل ذلك إنما يستعين بالشواهد والأمثلة التي يحلّلها ويعلّق عليها بما يدلّ على نفاذ فكره وإمامته في النقد والبلاغة وحُسن التذوّق .

وكما كان الإمام الجرجاني أرسى أركان علم المعاني في كتابه (دلائل الإعجاز) فكذلك أوضح في (أسرار البلاغة) كثيراً من أسرار الجمال في الصورة الأدبية ، وبيّن معالم التشبيه والاستعارة ، وكان له فضل كبير في تحديد معالم الفنّ الذي عُرف فيما بعد بعلم البيان .

والجرجاني لايخفي سبقه إلى ذلك حين يردّ على من يزعم أنه مسبوق إلى ما ذكر في فنّ البيان ، فيقول إن مايتحدث عنه أمر معروف عند من يحسن ذوق الكلام ، ولكنه مجهول « من حيث لم تنبثق فيه أوضاع تجري مجرى القوانين التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حُسن ما استُحسن وقبح ما استهجن »[1] . إنه يريد أن يصل إلى أن يجعل للذوق أساساً من العلم يرتكز إليه ، فلا استحسان إلا بعلّة ،

(١) اسرار البلاغة : ٢٣٩

ولا استقباح إلا بعلّة ... وهو في اعتقادنا من أكثر علمائنا توفيقاً في هذا المجال ، ولعله بينهم أحسن من استعان على التذوّق وتحليل أسرار الجمال بالعقل والعلم والمنطق .

ولقد تبوّأ الإمام الجرجاني هذه المنزلة الرفيعة في تاريخ البلاغة العربية بأمرين اثنين :

أولهما : أنه اتجه بالبلاغة نحو التقنين ، وتحديد المعالم ، فكانت له في (دلائل الإعجاز) نظرة كاملة في المعاني ، وكانت له في (أسرار البلاغة) نظرة كاملة تقريباً في علم البيان .

والأمر الثاني : أنه آلف بين العلم والذوق ، واستعان بأحدهما على الآخر ، فهو في تحليله للشواهد والأمثلة إنما يأخذ بأيدينا ليقفنا على الجمال بشعورنا وإحساسنا ، ثم يأخذ بأيدينا ثانية ليقنعنا بصدق شعورنا وإحساسنا بالجمال ، إقناع العقل والمنطق بعد إقناع الشعور والاحساس ، واطمئنانِ النفس والقلب .

يقول الدكتور شوقي ضيف : « ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً . أما النظرية الأولى فخصّ بعرضها وتفصيلها كتابه (دلائل

الإعجاز) ، وأما النظرية الثانية فخصّ بها وبمباحثها كتابه (أسرار البلاغة) [1] » ويقول ثانية : « على نحو ما وضع عبد القاهر نظرية المعاني ، وضع أيضاً نظرية البيان لأول مرة في تاريخ العربية،وحقاً إن كل الفصول التي بحثها سبقه إليها البلاغيون بالبحث ، ولكنهم لم يحرّروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحرّرها عبد القاهر في كتابه(أسرار البلاغة)فقد ميّز أقسامها وفروعها،وحلّل أمثلتها تحليلاً بارعاً » . [2] ويختتم الدكتور ضيف حديثه عن عبد القاهر وكتابه بقوله : « من الحق أنه وضع قوانين البيان لأول مرة في العربية وضعاً دقيقاً . كما وضع أيضاً قوانين المعاني لأول مرة . وإذا كان قد شُغل في (الدلائل) ببيان خصائص الصيغ الذاتية ، فقد كان همّه في (الأسرار) أن يكشف عن دقائق الصور البيانية ، متخللاً لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة،إذ كان محيطاً بنماذج الشعر العربي وفرائده، وكان له حسّ مرهف وبصيرة نافذة ، استطاع بهما على الرغم من محاولته وضع القوانين لنظريتي المعاني والبيان أن يجعل منهما بنيتين حيّتين ، تخلوان خلوّاً تاماً من جفاف النظريات وقواعد العلوم ، بل لكأنهما

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ١٦٠

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ١٩٠

روضان مونقان يرفّان بالنضرة والعطر والضياء . وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية في علم البديع ، وإن كان فصّل القول في (أسرار البلاغة) عن الجناس والسجع وحسن التعليل ، وأشار غير مرة إلى الطباق،ولكنه لم يحاول وضع نظرية عامة له.ولو صنع لأعفى أصحاب البديع من توزّع مباحثهم فيه توزّعاً حال بينه وبين أن تصبح نظرية متشابكة على نحو نظريتي المعاني والبيان »[1] .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٢١٧ - ٢١٩

الزمخشري

قبل أن يغمض الردى عين الإمام الجرجاني (سنة ٤٧١ هـ) بنحو أربع سنوات ولد عالم آخر (في سنة ٤٦٧ هـ) قام يحمل عنه عبء العمل البلاغي ، ويتمّ رسالته في شرح أسرار الإعجاز القرآني وبيان دقائق الجمال الأدبي ، وهو أبو القاسم ، محمود بن عمر الزمخشري [1] ، الإمام المفسِّر ، واللغوي النحوي ، والأديب البلاغيّ . صاحب تفسير (الكشّاف) ومعجم (أساس البلاغة) وكتاب (المفصَّل) المشهور في النحو .

تسلّم الزمخشري إرث الجرجاني الضخم وما اشتمل عليه من آراء بلاغية شرح الجرجاني بها وجوه إعجاز القرآن ، وعلّل بها صور الجمال الأدبي . فوجد الزمخشري في كل ذلك ما يرضي نزعته العقلية ، وهو العالم المعتزليّ ، ووجد ما يرضي إحساسه بالجمال وتذوّقه لصوره ، وهو الأديب الذوّاقة ، فانصرف إلى وضع تفسير للقرآن الكريم

(١) انظر ترجمته مفصّلة في إنباه الرواة ٣ : ٢٦٥ ومعجم الأدباء ٧ : ١٤٧ وبغية الوعاة : ٣٨٨

يكشف به عمّا في آيات الكتاب المعجز من أسرار بلاغية ودقائق معنوية ، وأتى في ذلك بما لم يُسبَق إليه .

كان الزمخشري يعتقد أن تفسير القرآن أمرٌ لا يُدرَك إلا عن طريق علمي المعاني والبيان، وأنه ما من فقيهٍ ، ولا متكلمٍ ، ولا لغوي ولا نحويّ ، ولا حافظ أو واعظ ، أياً كان مبلغه من علمه ، يستطيع أن يتصدّى لتفسير القرآن ما لم يبرع في علمين مختصّين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وهكذا أقام تفسيره على أساسٍ من هذين العلمين ،فتفرّد بهذه الميزة من بين المفسّرين .قال صاحب الطراز في معرض حديثه عن (الكشاف) : « لم أعلم تفسيراً مؤسّساً على علمي المعاني والبيان سواه »[1] .

وكأن الزمخشري كان يشير إلى الفصل بين علمي المعاني والبيان ، فيسمّي كلاً منهما علماً ، كما كان يستعمل لفظ كلٍ منهما علَماً على المباحث المتصلة به ، وعلى هديه سار العلماء من بعده ،فاستعملوا هاتين الكلمتين (المعاني) و (البيان) علَمين على العِلْمين البلاغيين المعروفين بعد أن كان السابقون يستعملون (البلاغة) و (الفصاحة) و (البيان)

---

(١) الطراز : ٥ . وانظر ماسبق في ص ٤٨ و ٤٩

على أنها ألفاظ مترادفة ، كما هو الأمر عند الإمام الجرجاني ، وقد يسمّون الجميع باسم (البديع) كما رأينا عند ابن المعتز .

وسار الزمخشري على منهج الجرجاني في تحليلاته العقليّة الذوقيّة وتطبيقاته البلاغية حتى قيل إن الزمخشري متمّم لعمل الجرجاني في البلاغة . والحق أن بين هذين الإمامين صلة واضحة وشبهاً يتجلّى في ثلاثة أمور :

أولها أن كلاً من الجرجاني والزمخشري ذو نزعة عقلية ، وتفكير منطقي ، وأسلوب منهجيّ .

وثانيها أن كلاً منهما أديب يتذوّق الجمال ويحسّه ، ويحاول عن طريق العقل والمنطق أن يجد المسوّغ المعقول لجمال مايستحسن،وقبح ما يستهجن .

وأما الأمر الثالث فهو أن البلاغة عند كلٍ منهما لم تكن بلاغة جافة ، قائمة على الحدود والتعريفات ، وإنما كانت بلاغة تطبيقية ، تحيا في النماذج البليغة ، وتلتصق بالنصوص الأدبية ، وأنّ كلاً منهما كان يحاول أن يأخذ بيدك ليفتح قلبك وعينيك على الجمال ، ويثير فيك الرغبة في استشعاره وتذوّقه تذوّقاً تطمئن إليه النفس وتخضع ، ويرضى به العقل ويقنع .

نحو الانحراف والجمود

ومضت سنون ، وخلف بعد علماء البلاغة البلغاء خلفٌ أضاعوا الأصالة ، ولم يدركوا مكانة الذوق والحسّ في البلاغة ، وفي تقويم آيات الجمال الأدبي ، كان معظم هؤلاء من علماء البلاغة ، ولكنهم لم يكونوا بلغاء في أنفسهم ، ولم يكونوا متذوّقين ولا قادرين على إشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوّقوها ، فجرّدوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد ، ثم صنّفوا ذلك مستعينين عليه ، كل بحسب ثقافته ، بالفلسفة والكلام والمنطق ... ، وفرّعوا وقسّموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية — في معظم الأحيان — مما كانت به بلاغة ، جاءت مجرّدة من أسباب الحياة ، جافة لا روح فيها ، معقّدة لا (بيان) يوضحها ، مقيّدة بالحدود ، وإذا هي غادرتها فإلى جدل فلسفي لا أثر للبلاغة الحيّة فيه .

وكان مما زاد في إساءتهم إلى البلاغة إسهام أدباء عصورهم ، بما أمدّوهم به من أدب هزيل وذوق سقيم .

كانت البلاغة فناً يُدرَك بالحسّ الجمالي ، أو كانت جمالاً يدرك بالذوق ، فأصبحت على أيديهم أحكاماً أو معارف صاغوها في حدود وتعريفات !

كنت تقرأ النصّ أو تسمعه فتأخذك الروعة ويكتنفك السحر ، وقد لا تدري سبباً لإعجابك، ولا تعرف علّة لسرورك ، حتى يأخذ بيدك ابن الصنعة — كالجرجاني أو الزمخشري — فيقفك على موطن الجمال الذي استهواك ، ويربط بينه وبين نفسك برباط من ذوقه وفكره ، فإذا سبب الإعجاب مكشوف لعينيك ، واضح أمام ناظريك ، فتزداد فوق إعجابك بالجمال إعجاباً بمعرفة سرّه . ونشوة بإدراك أمره . ثم أصبحت تقرأ النص فلا تشعر أمامه بشيء ، ويأتي عالم البلاغة ليقول لك إن فيه كذا وكذا نوعاً من البديع ، فلا يزيد النص جمالاً في عينيك ، ولا يغني شعورك بجديد ، وإنما هي اسماء تعارفوا عليها ، واصطلاحات وضعوها ، يحلّلون النصوص ليستخرجوها منها كما يستخرج عالم الكيمياء عناصر مادة يحلّلها ، دون أن يكون لتحليلهم صلة بالجمال ، أو رابطة بالذوق .

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إنه لم يأت بعد عصر الجرجاني والزمخشري مَن فهم البلاغة فهمهما إياها ، وإن الذين جاؤوا من بعد إنما كان عملهم

ـــ في أكثر الأحيان ـــ تلخيصاً أو شرحاً ، وإنهم لم يزيدوا في فهم البلاغة وشرح فنونها شيئاً ذا بال .

لقد ابتدأ الفخر الرازي[1] بتلخيص كتب الجرجاني تلخيصاً أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص ، ويقترب بها من الحدود والقوانين ، والأحكام والقواعد ، ثم استكملت (تقعيدها) على يد السكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) .

وأبو يعقوب السكاكي[2] (٦٢٦ هـ) هو ـــ كما قال عنه معاصره ياقوت في معجم الادباء ـــ علاّمة ، إمام في العربية ، والمعاني ، والبيان ، والأدب ، والعروض ، والشعر ، متكلّم ، فقيه متفنّن في علوم شتّى . وضع كتابه (مفتاح العلوم) وقسّمه ثلاثة أقسام : القسم الأول منها للصرف ، والقسم الثاني للنحو ، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوي عليه من علوم المعاني والبيان والبديع ، وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض .

وما وضعه السكاكي في مفتاح العلوم من تقسيم لعلوم البلاغة هو

---

(١) هو فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وصاحب كتاب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) .

(٢) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٧ : ٣٠٦ وبغية الوعاة : ٤٢٥

الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده ، وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر . فإذا عرفنا أن السكاكي كان متأثراً بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية ، وعرفنا أنه صبغ البلاغة في كتابه بصبغة هذه العلوم ، عرفنا سبب طغيان القوالب والحدود على علوم البلاغة ؛ وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من قلّده وحذا حذوه . وحسبك أن تقرأ ما كتبه السكاكي عن التشبيه وأنواعه وأقسامه — وهو موضوع يتصل بالصورة الأدبية وسرّ جمالها — لترى مدى تمسّك السكاكي بالحدود والتعريفات ، وترى مدى حبّه للتقسيم والتفريع ، بل لترى المدى الذي وصلت إليه البلاغة في جفافها وبعدها عن التحليل الذوقي والجمالي .

ولم يكن العلماء الذين جاؤوا بعد السكاكي أقلّ منا شعوراً بما في كتابه من تعقيد ، لذلك فقد بادروا إليه يشرحونه ويوضحون ما استغلق منه ، إلا أن هؤلاء العلماء كانوا متأثرين بأصل الكتاب وبنهج صاحبه ، كما كان كل منهم متأثراً بثقافته الخاصة وطبيعتها ، فكان منهم الفقيه ، ومنهم المتكلم . ومنهم النحوي ، وقد ظهر أثر ذلك كله في شروحهم وتعليقاتهم . وبقي (مفتاح العلوم) محوراً للتأليف

البلاغي ؛ فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والإيضاح والتلخيص والتهذيب ...

ولعلّ القزويني [1] (٧٣٩ ﻫ) من أبرز الذين لخّصوا مفتاح العلوم، وهو جلال الدين ، محمد بن عبد الرحمن ، كان عالماً في الفقه والعربية، ولي القضاء ودرّس في مصر والشام .

أعجب القزويني بكتاب مفتاح العلوم ، ولكنه رأى أن الفائدة لا تتم إلا بتهذيبه وترتيبه ، فوضع له ملخّصاً قال في أوله : « أما بعد، فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدراً ، وأدقّها سرّاً ، إذ به تُعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتُكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها ، وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي ، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً ، لكونه أحسنها ترتيباً ، وأتمّها تحريراً ، وأكثرها للأصول جمعاً ، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد . قابلاً للاختصار ، ومفتقراً إلى الإيضاح والتجريد ، ألّفت مختصراً يتضمّن ما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يُحتاج إليه من

(١) انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤ : ٣ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٣١٨ ، وبغية الوعاة : ٦٦ ومقدمة (تهذيب الإيضاح) لأستاذنا المرحوم عز الدين التنوخي .

الأمثلة والشواهد ... وسميته (تلخيص المفتاح) » .[1]

ثم رأى القزويني أن هذا الملخَّص لا يفي بالغرض ، وأنَّ التلخيص فيه زاد عن المطلوب ، فعاد ليضع كتابه الثاني (الإيضاح) . وهو من أحسن ما صنف المتأخرون في البلاغة . وقد قال في أوله : « أما بعد ، فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها، ترجمته بـ (الإيضاح)، وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته (تلخيص المفتاح) وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصّلت معانيه المجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه (مفتاح العلوم) وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) وإلى ما تيسّر النظر فيه من كلام غيرهما ، فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبتها ورتبتها حتى استقرّ كل شيء منها في محلّه ، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري ، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم . »[2]

على أن هذا (الإيضاح) الجديد لم يخلُ من بعض العسر ، ولم ينأ

(١) التلخيص : ٢ - ٣

(٢) مقدمة الإيضاح

عن الأسلوب الفلسفي ، مما دفع أستاذنا المرحوم عز الدين التنوخي إلى بسط ما غمض من عبارته ، والتعليق عليه بما يوضحه ويشرح مقاصده في كتاب سماه (تهذيب الإيضاح) ونشره في ثلاثة أجزاء. قدّم البديع في أولها ليسره وسهولته، وجعل الجزء الثاني للبيان. وترك الجزء الأخير لعلم المعاني[1] ، فكان هذا التهذيب آخر ما عرفناه من الثمرات المتصلة بكتاب المفتاح ، وأحسنها ترتيباً وأكثرها وضوحاً .

(١) طبعت الاجزاء الثلاثة في مطبعة جامعة دمشق في سنة ٩٤٨ و ٩٤٩ و ١٩٥٠

الخاتمة

رأينا أن البلاغة لم توجد بشكلها النظري ، شكلِ القواعد والأحكام والحدود والتعريفات ، إلاّ بعد أن وجدت من قبلُ بشكلها العمليّ في كلام العرب ، شعره ونثره . وأن البلغاء من المتكلمين والبلغاء من المتذوّقين كانوا أسبق — من حيث الزمن — من علماء البلاغة الذين استنتجوا فنون البلاغة من كلام أولئك وأحكامهم . ولا غرابة في ذلك بل هو أمر منطقي نعرفه في نشأة علوم العربية من نحو وصرف وعروض ؛ فلقد تكلم العرب بسلائقهم لغةً سليمة لا لحن فيها ، واشتقوا على ما شاؤوا من الصيغ والأوزان ، ونظموا الشعر على البحور المختلفة ، قبل أن يظهر علماء النحو والصرف والعروض بعدّة قرون .

ورأينا كذلك أن البلاغة سارت متطوّرة عبر تاريخ طويل ، منذ كانت صفة للكلام الجيّد والقول المبين إلى أن أصبحت علماً ذا قواعد وأحكام وفروع وأقسام ، وأنها لم تنشأ مستقلة عن غيرها من علوم

القرآن واللغة والأدب والنقد ، وإنما سارت في مواكب هذه العلوم وترعرعت في أكنافها ، وكانت موضوعاً مشتركاً بين الدراسات القرآنية واللغوية والأدبية والنقدية . كانت البلاغة موضوعاً تناوله من بحث في إعجاز القرآن وبيان أسراره ، ومن بحث في أساليب العربية وطرق أدائها ، ومن بحث في البيان العربي وصفاته ، ومن بحث في المفاضلة بين طبقات الكلام وتمييز جيّده من رديئه . وكانت كل طائفة من أولئك العلماء تتناول البلاغة من الجانب الذي يعنيها ، وبالقدر الذي يحقق غايتها ، وعلى جهودهم جميعاً قامت علوم البلاغة بفنونها وأنواعها .

على أن البلاغة التي وضعوها لم تصل إلى أيدينا إلا بعد أن علق بها الكثير من آثار الفلسفة والمنطق ، وابتعدت عن اللغة الحيّة ونصوصها الأدبية ، وأفرغت في تعريفات وقوالب جامدة ، ولم تعد كما كانت بنت الذوق السليم ونفحة الحسّ المرهف بالجمال . ولذلك فلم يعد يفي بحاجتنا اليوم أن نعود إلى كتب البلاغة نوضّحها ، أو نعيد تأليفها على منهج آخر ، وإنما يجب أن نعيد النظر في مفهوم البلاغة ، وأن نخلّصها مما علق بها ، ثم أن نوضّح وظيفتها ونجعلها أوسع وأشمل .

١ — ليست البلاغة صفة ثانوية نصف بها اللغة إذ نقول : هذه لغة بليغة ، أو : تلك جملة بليغة . وإنما هي أمر أساسي في إدراك اللغة غايتَها ، إذ هي التي تعين على البيان ، وتساعد على الفهم . إن البلاغة تعلّمنا كيف نتكلم بلسان عربي مبين ، وكيف ننشىء بأسلوب عربي صحيح ، وكيف نفهم ما أنشىء في هذه اللغة من بليغ القول ورائع الكلام . إنها ترشدنا إلى الطريقة التي نوضح بها أغراضنا ، ونبين بها عن المعاني الكامنة في نفوسنا ، وتدلنا على أقوم السبل إلى إخراج المعنى في أحسن صورة . إن البلاغة تعلّمنا كيف نركّب الجملة العربية لتصيب بها الغرض المعنوي الذي نريد على اختلاف الظروف والأحوال ، وذلك هو الغرض من علم المعاني . وتعلّمنا كيف نصوغ الصورة وننوّع الأسلوب لتظهر الدلالة بوضوح ، وتلك هي وظيفة فنّ البيان . وتعلّمنا أخيراً كيف تأتي الصورة موشّاة ، يتنافس على الحسن فيها معناها ومبناها ، ثم لا يكون الحسن في المبنى إلا إذا كان — هو نفسه — حسناً زائداً على المعنى ، وتلك هي وظيفة فن البديع .

وعلى هذا ، فالبلاغة أمر لا تستغني عنه اللغة ، لأنها بها تتحقق غايتها ، وعن طريقها يكون الفهم والإفهام أوضح وأنصع ، والفهم والإفهام غاية كل لغة .

٢ — ينبغي ألاّ نقف اليوم عند من فهم البلاغة حدوداً وتعريفات، أو منطقاً وفلسفة، ولا عند من انحرف بفهم بعض فنونها كالبديع؛ فرآه زخرفة لفظية هي غاية في نفسها .. وإنما يجب أن نعود إلى الفهم الصحيح لكل ذلك، فهمِ الإمام الجرجانيّ ونظرائه، ممن لا يرون أيمن طائراً ولا أجلب للاستحسان من أن تُترك المعاني تختار ما يروق لها من أثواب اللفظ، وما يليق بها من صور البيان، وأنه لا استحسان للألفاظ والصور إلا إذا كانت المعاني هي التي ساقت نحوها وقادت إليها.

على أن ذلك لا يعني أبداً أن نهمل اللغة أو نقلّل من العناية بأساليبها التعبيرية، لأن اللغة — كما قال الآمدي — إذا كانت حسنة التأليف، بارعة اللفظ، زادت المعنى المكشوف بهاء وحسناً وزَونقاً حتى كأنها قد أحدثت فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تُعهد. بل إننا نرى أنه لا يجوز أن ننظر إلى اللغة على أنها مجرد خادم للفكر، أو مجرد وسيلة للتعبير، لأنها في الحقيقة — وإن كانت تخدم الفكر وتعبّر عنه — تتصف بصفات ذاتيّة ترفع قيمتها وتُعلي من شأنها في مجال الفنّ والتذوّق والجمال. إن عنصر التصوير وعنصر الموسيقى مثلاً

عنصران أساسيان في التعبير اللغوي الجميل ، وقد تفقدهما اللغة إذا بالغنا في النظر إليها على أنها مجرد وسيلة للتعبير عن الفكر . إن اللغة — في تعبيرها عن الفكر — ذات جانبين ؛ لأنها وسيلة التعبير من جهة، ولأنها هي التعبير نفسه من جهة ثانية .

٣ — تتضافر علوم اللغة العربية للوصول بالمتعلّم إلى فهم اللغة وأدبها ، والقدرة على استعمالها والتعبير بها ، فالتعبير السليم الجميل هو غاية نسعى إليها ، وليس هنا مجال الحديث عن (التعبير) وما يجب أن يحظى به من رعاية واهتمام ، وما ينبغي أن نبذل في سبيل تعليمه من جهد وعناية ، ولكن الذي نريد أن ننبه عليه ، ونحن بصدد الحديث عن البلاغة ، أن الخطأ في التعبير لا يكون من حيث الإعراب أو الصرف فقط ، بل إن هناك ما الخطأ فيه أفدح وأشنع ، وهو تركيب الجملة أو صياغة العبارة . وهو أمر بالغ الأهمية في الإنشاء وفي فهم النصوص ، والعلم الذي يقوم على رعاية ذلك ويبيّن كيف تصاغ الجملة صياغة متلائمة مع مقتضى الحال إنما هو علم المعاني ؛ فهو علم القواعد المتعلّقة بأركان الجملة ومتعلّقاتها في اللغة العربية ، إنه يبيّن الحالة التي ينبغي أن يكون عليها المسند والمسند إليه ، ومتى يجب فيها الذكر أو

الحذف ، والتقديم أو التأخير ، والتعريف أو التنكير ، والقصر أو الإرسال ، والوصل أو الفصل ...

ويبيّن الأسلوب الذي ينبغي أن يخرج عليه الكلام ، ومتى يكون الكلام خبراً ، ومتى يكون إنشاء ، ولماذا يكون كذلك ؟ وإذا عرّفت المسند إليه مثلاً ، فمتى تعرّفه باللام و متى تعرفه بالإضافة ؟ و بالعلَمية ؟ وبالموصوليّة ؟ وبالإشارة ؟ ؟ ..

إن علم المعاني يكفل لك كل ما يتصل بالمعنى النحوي للكلمة وموضعها في الجملة . ونحن نعجب كيف تتجه العناية في مناهجنا ومدارسنا وجامعاتنا على اختلاف درجاتها إلى دروس النحو ومشاكل الإعراب دون علم المعاني ، كيف يكون النحو — الذي يُدرَّس — مع ذلك منفصلاً في أحكامه وتعليلاته عن الدواعي المعنوية التي اقتضت تلك الأحكام وتطلّبت تلك العلل ، إننا نعجب لماذا يدرس الطالب في درس النحو أَماكن حذف المبتدأ أو ذكره ، ومواطن تقديمه أَو تأخيره ، دون أَن تذكر له بالتفصيل الكافي دواعي الذكر والحذف والتقديم والتأخير ، وإنها لدواعٍ تزيد الوضوح ، وتعمّق الفهم ، وتيسّر الدرس .

إننا ندرس (النحو) بعيداً عن (معانيه) ، وندرس (المعاني) بعيدة عن (القواعد) ، وفي اعتقادنا أن ذلك فصل غـير صحيح ، وانه لا بدّ من الوصل بينهما حتى تقوم في أذهان المتعلّمين وحدة من القواعد والأحكام والتعليلات والأمثلة، تضبط لهم ألسنتهم وأقلامهم، وتكفل لهم السلامة في التعبير ، والدقة في الصياغة ، مع مراعاتهم للظروف ومقتضيات الأحوال ،على النحو الذي يوضحه علم المعاني .

إنه لا فرق اليوم عند طالب الجامعة ــ بله الطالب فيما دونها ــ بين قوله : زيد منطلق ، وقوله : المنطلق زيد ، وقوله : زيد هو المنطلق ، وقوله : المنطلق هو زيد . ولا فرق عنده بين أن يقول : أنا ما سمعت ، و : ما أنا سمعت ، و : ما سمعت أنا ، ولا بين أن يقول كل الطلاب لم يحضروا ، و : لم يحضر كل الطلاب ... إلى آخر ما في العربية من جمل تختلف معانيها باختلاف تركيبها،أو باختلاف مواضع الألفاظ فيها . ولن يبلغ متعلّم العربيـة الغاية في اللغة فهماً وأداءً إلا اذا تضافرت لديه علوم العربية جميعاً من النحو والمعاني والبلاغة والصرف ، ثم زادته النصوص تمرّساً بهذه العلوم وأساليبها .

٤ ـ في البلاغة عنصران يجب أن يكونا متلازمَين لا ينفصل

احدهما عن الآخر ، ولا يدخل أحدهما الضيم على الآخر ، وهما الذوق والعلم . وقد تكون كلمة (الفنّ) خير ما يعبّر عن هذا التلاقي بين العلم والذوق ، إذ أن الفنّ ، كلّ فن ، علم يعبّر عن الذوق ، وهو أيضاً ذوق يعتمد على العلم ، وكذلك شأن البلاغة ، إذ هي مقياس لجودة الكلام وسلامته وجماله ، وعن طريقها يكون التفاضل بين طبقات الكلام من البيان المعجز إلى العاميّ الساقط . وإدراك الجمال أمر إن لم تصل إليه بذوقك وشعورك ، فما من علم ولا منطق يستطيع أن يكرهك على قبوله ، أو يفرض عليك استحسانه ، ولا بدّ في البلاغة ـ ما دامت عنصراً من عناصر التقويم الأدبي ـ من أن تكون قادرة على إشعارك بالجمال عن طريق الذوق والحسّ ، ثم قادرة على إقناعك بلطف ذوقك ورهافة حسّك عن طريق العقل والعلم .

وإذا كان العلم أمراً يُتَّفق عليه ، فإن الذوق ـ مهما يحاول المرء تقنينه ـ أمر يتصف بالشخصية أو الذاتيّة إلى حد بعيد ، إنه أمر لا جدال فيه ، فأنت لا تستطيع عن طريق الفكر والعقل أن تقنعني بتذوّق جمالٍ لا أتذوّقه من قبل عن طريق ذوقي الشخصي ، أو باستحسان جمالٍ لا أراه جمالاً .. نعم قد تقنعني بفائدة شيءٍ ما أو

بنفعه وقيمته، ولكنك لا تستطيع أن تقنعني بجماله إن كنت أنا استقبحه.

وما دام في الذوق عنصر شخصي ، والذوق عنصر من عناصر تقويم الفنّ أو الجمال لا يمكننا الاستغناء عنه في تقويم الأدب ، فقد أصبح من غير المعقول أن نستورد لتقويم أدبنا مقاييس ليست من بيئتنا ومجتمعنا ، ولم تنشأ في ظلال لغتنا وأدبنا، بل هي بنت أذواق ليست أذواقنا ،وقد تنسجم معها مرة وتنبو عنها مرات أخر .

٥ ـ كان همّ الذين عُنوا بالبلاغة قديماً أن يكشفوا عن السرّ في إعجاز القرآن،ثم أن يميزوا جيّد الكلام من رديئه ، وأن يفاضلوا بين الأجود والجيّد من أساليب القول . وكانت أساليب القول عندهم مقصورة على الصناعتين ، الكتابة والنظم ، أو النثر والشعر ، فبحثوا في البلاغة من خلال هذين النوعين من الكلام ، وجاؤوا بكثير مما يفي بغرضهم ويحقق لهم غايتهم ، ولكنهم لم يأتوا في البلاغة بكل شيء ، لقد كانت البلاغة عندهم وليدة البحث في موضوعات معيّنة كإعجاز القرآن وبعض أبحاث الأدب والنقد ، فتناولوا من عناصر البلاغة ما اتصل بموضوعاتهم ، وتركوا عناصر أخرى كانت جديرة بالبحث والعناية ، ولا بدّ أن يتناولها علم البلاغة بالبحث والدراسة

بعمق ودقة ، كالبحث في الجملة الشعرية ، وهل يختلف تركيبها عن الجملة النثرية ؟ بل هل يصلح في لغة الشعر كل ما يصلح في لغة النثر ؟؟ وكذلك البحث في موسيقى الشعر ، بـــدءاً من أصوات الحروف مفردة ومركَّبة إلى موسيقى الألفاظ في الجملة الشعرية وموسيقى الوزن الشعري .

إن ما ذكروه عن تنافر أصوات الحروف في الكلمة ، وتنافر أصوات الكلمات في الجملة في معرض أحاديثهم عن شروط الفصاحة، وما ذكره بعضهم من أحكام الأصوات ومخارج الحروف ، لم يعد اليوم كافياً ولا مقنعا ، ثم إنهم وقفوا عند الأنواع الأدبية التي عرفوها ، فتحدثوا عن موضوعاتها وأغراضها حتى عرفنا ما يشترطون لجودة المديح ، وما يشترطون لجودة الهجاء ، وما يعجبهم في الغزل ، وما يستحسنون في الرثاء ... ولكنّ العربية اليوم أمام فنون جديدة من القول لم يعرفها القدماء، إنها أمام فنون أدبية وافدة ، برعنا في اقتباسها وتقليدها ، وبقي علينا أن نبرع بدراسة ما يلائمها في لغتنا من ضوابط ومقاييس ، وإلاّ بقيت صورةً عن الأصل المقتبس وصدىً للصوت المحكيّ ، وشتّان ما بين أن تبقى مترجمة أو مقتبسة ، وبين أن تصبح

ـ على عجمة أَصلها ـ عربية الصبغة والطابع ، عربية النهج والأسلوب.

٦ ـ بين البلاغة وعلم النفس وعلم الجمال صلة ينبغي أن تُدرس وتحدد وتستثمر . ذلك أن البلاغة عامل من عوامل تقويم الأدب ونقده ، والأدب فن جميل أداته اللغة ، بل إن اللغة وحدها لا تصنع أدباً ، إذ لا بد أن تكون لغة جميلة حتى تستطيع أن تنشىء ـ مع عناصر الأسلوب الأدبي الأخرى ـ الأدب الصحيح. ولا بد أن يعنى بالناحية الجمالية في المقاييس الأدبية ، ومنها البلاغة، كما يعنى بها في الأدب نفسه. ثم إن البلاغة نفسها ، بما فيها من فنون التصوير البياني ، وأساليب التحسين المعنوي واللفظي ، عملية جمالية . وعلى هذا فالبلاغة تساعدك على إدراك الجمال ، سواء أردت إدراكه وتحقيقه في أدبك إذا أنشأته، أو إدراكه والوقوف على مواطنه في أدب غيرك إذا سمعته أو قرأته .

والأدب ـ كما هو معروف ـ تعبير عن تجربة نفسية ، وجودته ـ كما قال الجرجاني ـ إنما تكون في مدى تأثير صوره في نفس المتذوق. ولا بد من معرفة العمليات النفسية التي تسهم في خلق الأدب وتذوقه، إذ هو فن يسهم في تكوينه الإبداع والشعور والعاطفة والتخيّل ، والذوق عامل أساسي فيه كما هو عامل أساسي في نقده ؛ وذلك لأنه

يعين الأديب على الصياغة والتصوير ، ويساعده على الانتقاء في مجال الألفاظ والأساليب ،كما يعين المتذوق على الإدراك والتقويم ،ويساعد الناقد على الحكم والتقدير ، وكما أن الأديب يكون أقدر على الإبداع إذا كان أرهف ذوقاً ، فكذلك كلما كان الناقد أو المتذوق أرهف ذوقاً كان أقدر على إدراك الإبداع وتحسس الجمال .

وليس الحديث عن الصلة بين الأدب وعلم النفس بالحديث الجديد، فقد أصبحت الدراسات الأدبية النفسية أمراً معروفاً ، ولكن الذي نحب أن نشير إليه هو أن بين علم النفس وبين كثير من فنون القول وأساليب التعبير صلات يجب أن تدرس وتوضح معالمها ؛ إن عملية (تداعي الأفكار) ، وهي عمليه نفسية ، تسيطر على كثير من الفنون البلاغية.. وإنه ليجدر بنا أن نسأل لماذا يشبِّه الأديب شيئاً ما بشيء معيَّنٍ دون غيره ، ألأن وجه الشبه وحده قوي في المشبه به حتى نبّه على نفسه أم لأن تداعي الأفكار عند الأديب قاده إلى هذا المشبه به دون غيره ؟؟ أليس الانتقال من طرف إلى طرف في التشبيه إنما يتم بتأثير تداعي الأفكار ؟ أليس ذلك سبباً واضحاً كافياً لتعليل اختلاف الشعراء في اختيار المشبه به رغم وحدة المشبَّه ؟

وإن لتداعي الأفكار صلة واضحة بالمجاز والاستعارة وكل مافيه انتقال من طرف إلى طرف من أساليب البيان. وإنه ينبغي أن يدرس كل ماله صلة بالبلاغة وفنون التعبير وأساليب القول من علم النفس وعلم الجمال ، وأن يشار إلى تلك الصلة وإلى أثرها في العمل البلاغي . ولا شك أن ذلك سيعود على البلاغة بنتائج قيمة . وخاصة بعد ما أصابته الدراسات النفسية والجمالية في العصر الحديث من تقدم وازدهار .

المراجع (1)

أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ، بدوي احمد طبانة ، القاهرة ١٩٥٢

الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، القاهرة ١٣٠٦

أثر القرآن في تطور النقد الأدبي ، محمد زغلول سلام ، القاهرة ١٩٥٢

أسرار البلاغة ، الجرجاني ، تحقيق ه . ريتر ، استانبول ١٩٥٤

أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، سعيد الافغاني ، دمشق ١٩٣٧

إعجاز القرآن ، الباقلاني ، تحقيق سيد احمد صقر ، القاهرة ١٩٥٤

البديع ، ابن المعتز ، تحقيق كراتشقوفسكي ، بغداد ؟

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، ابراهيم سلامه ، القاهرة ١٩٥٢

البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٦٥

البلاغة العربية في دور نشأتها ، سيد نوفل ، القاهرة ١٩٤٨

البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٤٨

تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، طه احمد ابراهيم ، القاهرة ١٩٣٧

التلخيص ، القزويني ، القاهرة ١٩٠٤

تهذيب الإيضاح ، عز الدين التنوخي ، دمشق ١٩٤٨

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرماني والخطابي والجرجاني
تحقيق : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ؟

الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٣٨

دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، القاهرة ١٣٣١

(١) قدمنا اسم الكتاب فالمؤلف فالمحقق فمكان الطبع وتاريخه .

سر الفصاحة ، الخفاجي ، القاهرة ١٩٣٢
الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، القاهرة ١٩١٤
العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، القاهرة ١٩٠٧
عيار الشعر ، ابن طباطبا ، تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٥٦
الكامل في اللغة والأدب ، المبرد ، تحقيق زكي مبارك وأحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٩٣٦
الكتاب ، سيبويه ، القاهرة ١٣١٦
كتاب الصناعتين ، العسكري ، الاستانة ١٣٢٠
مجاز القرآن ، أبو عبيدة ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، القاهرة ١٩٥٤
معاني القرآن ، الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، القاهرة ١٩٥٥
مفتاح العلوم ، السكاكي ، القاهرة ؟
الموازنة بين الطائيين ، الآمدي ، تحقيق سيد احمد صقر ، القاهرة ١٩٦١
الموشح ، المرزباني ، القاهرة ١٣٤٣
النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، القاهرة ؟
الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي الجرجاني ، القاهرة ؟

كتب التراجم

إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٠
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي ، القاهرة ١٣٢٦
تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، القاهرة ١٩٣١
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، العسقلاني ، حيدر آباد ١٣٤٨
شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، القاهرة ١٣٥٠
الفهرست ، ابن النديم ، القاهرة ١٣٤٨
معجم الادباء ، ياقوت ، تحقيق مرغليوث ، القاهرة ١٩٢٣
النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، القاهرة ١٩٣٠

المحتوى

للمؤلف

١ ـ الايضاح في علل النحو للزجاجي (تحقيق) القاهرة ١٩٥٩

٢ ـ الزجاجي ، حياته وآثاره ومذهبه النحوي دمشق ١٩٦٠

٣ ـ الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه دمشق ١٩٦٣

٤ ـ مغني اللبيب لابن هشام (تحقيق بالاشتراك)

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٦٥

الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٦٩

٥ ـ النحو العربي .

بحث في نشأة النحو وتاريخ العلة النحوية .

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٦٥

الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧١

٦ ـ النصوص اللغوية

نصوص مختارة من كتابي الخصائص لابن جني

والمزهر للسيوطي بيروت ١٩٦٧

٧ ـ الموجز في تاريخ البلاغة بيروت ١٩٦٨

٨ ـ كتاب اللامات للزجاجي (تحقيق) مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٩

٩ ـ مجتمع الهمذاني

بحث يحلل المقامات ويستشف من ورائها صورة

المجتمع الذي انشئت فيه دمشق ١٩٧٠

١٠ ـ نحو وعي لغوي دمشق ١٩٧٠